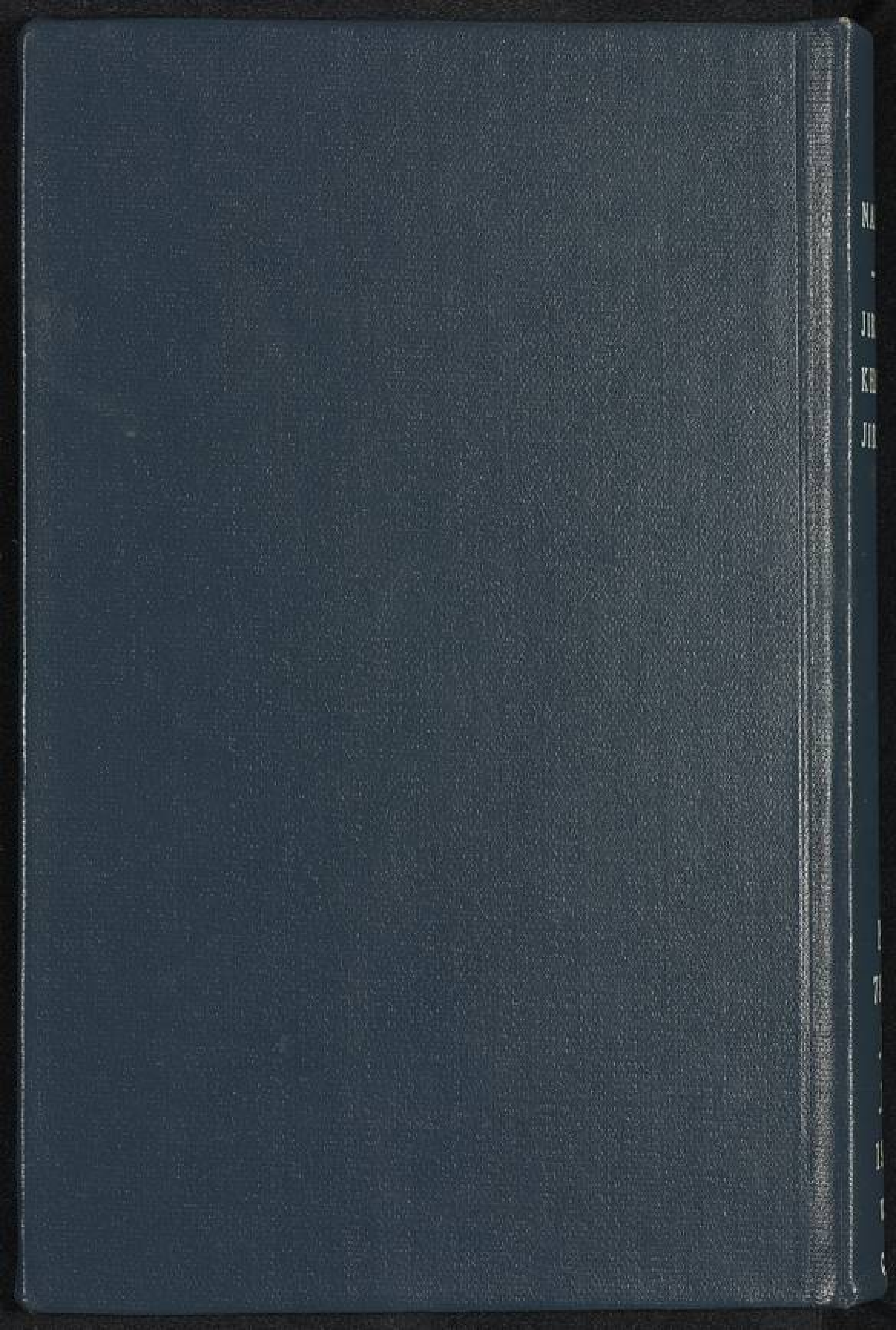


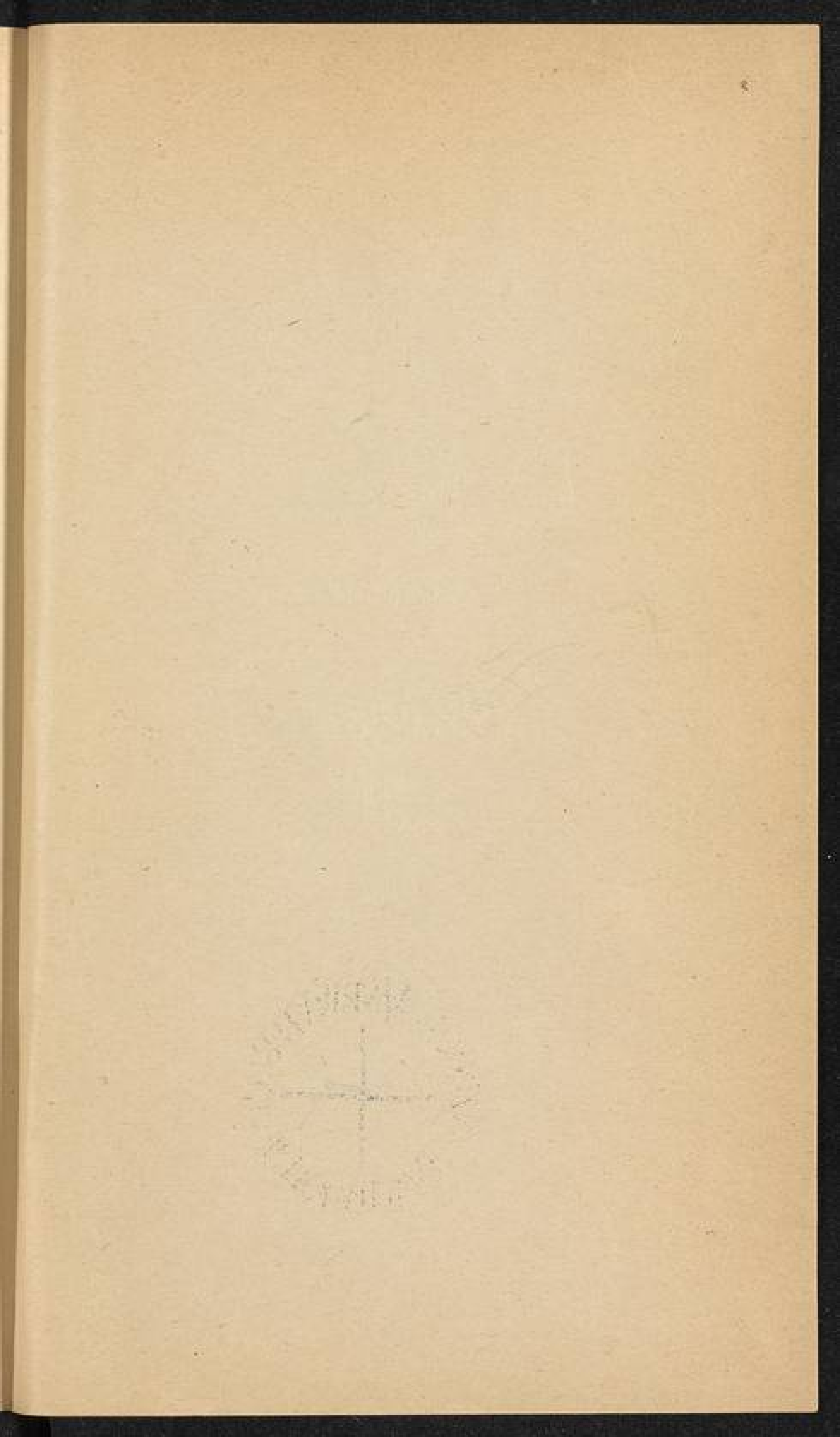


DATE DUE

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

الجزء الثالث



المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

قدم لها وأشرف على تنسيقها

ميخائيل نعيمة

الجزء الثالث: العواصف
البدائع والطرائف



مكتبة صادر
بيروت

١٩٥٥

العواصِفُ

حفار القبور

في وادي ظل الحياة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرتُ وحيداً في ليلة حجب الضباب نجومها ، وخامر الهول سكينتها .

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع ، المنساب كالحية الرقطاء ، المتراكض كأحلام المجرمين ، وقفتُ مصغياً لهمس الاشباح ، محدقاً الى اللاشيء .

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الارواح من اوكارها ، سمعت وقع اقدام ثقيلة تقترب مني ، فالتفت واذا بشبح جبار مهيب منتصب امامي ، فصرخت مذعوراً : ماذا تريد مني ؟

فنظر اليَّ بعينين مشعشعتين كالمسارج ثم اجاب بهدوء : لا اريد شيئاً واريد كل شيء .

قلت : دعني وشأني وسر في سبيلك .

فقال مبتسماً : ما سبيلي سوى سبيلك ، فانا سائر حيث تسير ورابض حيث تربض .

قلت : جئت اطلب الوحدة فخلّني ووحدتي .

فقال : انا الوحدة نفسها فلماذا تخافني ؟

قلت : لست بخائف منك .

فقال : ان لم تكن خائفاً فلماذا ترتجف مثل قصبة امام الريح ؟

قلت : ان الهواء يتلاعب باثوابي فترتجف ، اما انا فلا أرتجف .

فضحك مقهقهاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال : انت جبان تخافني وتخاف ان تخافني ، فخوفك مزدوج ولكنك تحاول اخفاءه عني وراء خداع اوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني .

ثم جلس على الصخر فجلست قسر ارادتي محدّقاً الى ملامحه المهيبة .

وبعد هنيهة خلتها الف عام نظر اليّ مستهزئاً وسألني قائلا : ما اسمك ؟

قلت : اسمي عبد الله .

فقال : ما اكثر عبيد الله وما اعظم متاعب الله بعبيده ! فهلاّ دعوت نفسك سيد الشياطين واضفت بذلك الى مصائب الشياطين مصيبة جديدة ؟

قلت : اسمي عبدالله وهو اسم عزيز اعطاني اياه والدي يوم ولادتي فلن ابدله باسم آخر .

فقال : ان بلية الابناء في هبات الآباء ، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه واجداده يظل عبد الاموات حتى يصير من الاموات .

فحنيت رأسي مفكراً بكلماته ، مسترجعاً الى حافظتي رسوم احلام شبيهة بحقيقته ، ثم عاد فسألني قائلا : وما صناعتك ؟

قلت : انظم الشعر وانثره ، ولي في الحياة آراء اطرحها على الناس .

فقال : هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرهم .

قلت : وماذا عسى ان افعل بايامي ولياليّ لأنفع الناس ؟

فقال : اتخذ حفر القبور صناعة تريح الاحياء من جثث الاموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم .

قلت : لم أرَ قط جثث الاموات مكردسة حول المنازل .

فقال : انت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون امام عاصفة الحياة فتظنهم احياء وهم اموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم .

قلت وقد ذهب عني بعض الوجل : وكيف اميز بين الحي والميت وكلاهما يرتعش امام العاصفة ؟

فقال : ان الميت يرتعش امام العاصفة ، اما الحي فيسير معها راكضاً ولا يقف الا بوقوفها .

واتكأ اذ ذاك على ساعده فبانت عضلاته المحبوكة كأصول سنديانة مملوءة بالعزم والحياة ، ثم سألني قائلاً : أمتزوج انت ؟

قلت : نعم وزوجتي امرأة حسناء وانا كلف بها .

فقال : ما اكثر ذنوبك ومساوئك ! انما الزواج عبودية الانسان لقوة الاستمرار . فان شئت ان تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً .

قلت : لي ثلاثة اولاد كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه ، فماذا افعل بهم ؟

فقال : علمهم حفر القبور ، واعطِ كل واحد رفشاً ثم دعهم وشأنهم .

قلت : ليس لي طاقة على الوحدة والانفراد ، فقد تعودت لذة العيش بين زوجتي وصغاري ، فان تركتهم تركتني السعادة .

فقال : ما حياة المرء بين زوجته واولاده سوى شقاء اسود مستتر وراء طلاء ابيض . ولكن ان كان لا بدَّ من الزواج فاقترن بصبية من بنات الجن .

قلت مستغرباً : ليس للجن حقيقة فلماذا تخدعني ؟

فقال : ما اغباك فتى ! ليس لغير الجن حقيقة ، ومن لم يكن من الجن كان من عالم الريب والالتباس .

قلت : وهل لصبايا الجن ظرف وجمال ؟

فقال : لهن ظرف لا يزول وجمال لا يذبل .

قلت : ارني جنية فأقنع .

فقال : لو كان بامكانك ان ترى الجنية وتلمسها لما اشرت عليك بزواجها .

قلت : وما النفع من زوجة لا تُرى ولا تُمس ؟

فقال : هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والاموات الذين يختلجون امام العاصفة ولا يسيرون معها .

وحوَّل وجهه عني دقيقة ثم عاد فسألني قائلاً : وما دينك ؟

قلت : أؤمن بالله واكرم انبياءه واحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة.

فقال : هذه ألفاظ رتبتها الاجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . اما الحقيقة المجردة فهي انك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير ميولها ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها باسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه، فتارة يدعوها البعل وطوراً المشتري واخرى الله .

ثم ضحك فانفرجت ملامحه تحت نقـاب من الهزء والسخرية وزاد قائلا : ولكن ما اغرب الذين يعبدون نفوسهم ، ونفوسهم جيف منتنة !

*

ومرّت دقيقة وانا افكر بأقواله فأجد فيها معاني اغرب من الحياة واهول من الموت واعمق من الحقيقة . حتى اذا ما تاهت فكرتي بين مظاهره ومزاياه ، وهاجت ميولي لاستعلان اسراره وخفاياه ، صرخت قائلا : ان كان لك رب فبربك قل لي من أنت ؟

قـال : انا رب نفسي .

فقلت : وما اسمك ؟

قـال : الاله المجنون .

فقلت : واين ولدت ؟

قـال : في كل مكان .

فقلت : ومتى ولدت ؟

قـال : في كل زمان .

فقلت : ممن تعلمت الحكمة ، ومن ذا الذي باح لك بأسرار الحياة وبواطن الوجود ؟

قال : لست بحكيم ، فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء ، بل انا مجنون قوي اسير فتميد الارض تحت قدمي وأقف فتقف معي مواكب النجوم . وقـد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الابالسة ، وفهمت اسرار

الوجود والعدم بعد ان عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل .

فقلت : وماذا تفعل في هذه الاودية الوعرة وكيف تصرف ايامك ولياليك ؟

قال : في الصباح اجدّف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ، وفي المساء اسخر بالطبيعة ، وفي الليل اركع امام نفسي واعبدها .

فقلت : وماذا تأكل وماذا تشرب واين تنام ؟

قال : انا والزمان والبحر لا ننام ولكننا نأكل اجساد البشر ونشرب دماهم ونتحلى بلهاثهم .

وانتصب اذ ذاك مبكلًا ذراعيه على صدره ثم حدّق الى عينيّ وقال بصوت عميق هادىء : الى اللقاء ! فانا ذاهب الى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة .

فهتفت قائلًا : امهلني دقيقة في سؤال آخر .

فاجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل : إن الآلهة المجانين لا يمهلون احداً . فإلى اللقاء .

واختفى عن بصري وراء ستائر الدجى وتركني خائفاً طائشاً محتاراً به وبنفسي .

ولما حوّلت قدمي عن ذلك المكان سمعت صوته متموجاً بين تلك الصخور الباسقة قائلًا :

— الى اللقاء ! الى اللقاء !

وفي اليوم التالي طلّقت امرأتي وتزوجت صبية من بنات الجن ، ثم اعطيت كل واحـد من اطفالي رفشاً ومحفراً وقلت لهم : اذهبوا وكلما رأيتم ميتاً واروه في التراب .

ومن تلك الساعة الى الآن وانا أحفر القبور وألحد الاموات ، غير ان الاموات كثيرون وانا وحدي وليس من يسعفني !

العبودية

انما الناس عبيد الحياة وهي العبودية التي تجعل ايامهم مكتنفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع .

ها قد مرّ سبعة آلاف سنة على ولادتي الاولى وللآن لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبّلين .

لقد جبت مشارق الارض ومغاربها، وطفت في ظل الحياة ونورها، وشاهدت مواكب الامم والشعوب سائرة من الكهوف الى الصروح ، ولكنني لم أرَ للآن غير رقاب منحنية تحت الاثقال ، وسواعد موثقة بالسلاسل ، وركب جاثية امام الأصنام .

قد اتبعت الانسان من بابل الى باريس ، ومن نينوى الى نيويورك، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه ، وسمعت الاودية والغابات تردد صدى نواح الاجيال والقرون .

دخلت القصور والمعاهد والهياكل، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم ، والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الاموات .

دخلت منازل الاغنياء الاقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء ، ووقفت في المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي المآوي المفعمة باشباح اليأس وأنفاس المنايا ، فرأيت الاطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء ، والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجعن على اسرّة الطاعة والامتثال .

اتبعت الاجيال من ضفاف الكنج الى شاطىء الفرات الى مصب النيل الى جبل سينا الى ساحات اثينا الى كنائس رومية الى ازقة القسطنطينية الى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب مذابحها ويدعونها الهاً ، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكاً ، ثم يحرقون البخور امام تماثيلها ويدعونها نبياً ، ثم يخرّون ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من اجلها ويدعونها وطنية ، ثم يستسلمون الى مشيئتها ويدعونها ظل الله على الارض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بارادتها ويدعونها اخاء ومساواة ، ثم يجدّون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالاً وتجارة ... فهي ذات اسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد ، بل هي علة أزلية أبدية تجيء باعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الابناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة ، وتلقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول .

*

واغرب ما لقيت من انواع العبوديات واشكالها العبودية العمياء ، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم امـام تقاليد جدودهم وتجعلهم اجساداً جديدة لارواح عتيقة وقبوراً مكلسة لعظام بالية .

والعبودية الخرساء ، وهي التي تعلق ايام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها . وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم ...

والعبودية الصماء ، وهي التي تكره الافراد على اتبـاع مشارب محيطهم والتلون بألوانه والارتـداء بأزيائه فيصبحون من الاصوات كرجع الصدى ومن الاجسام كالخيالات .

والعبودية العرجاء ، وهي التي تضـع رقاب الاشداء تحت سيطرة المحتالين ، وتسلم عزم الاقوياء الى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الاصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء ، وهي التي تهبط بأرواح الاطفال مـن الفضاء المتسع الى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ، ويقطن الذل في جوار القنوط ، فيشبُّون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين .

والعبودية الرقطاء ، وهي التي تبتاع الاشياء بغير اثمانهـا ، وتسمي الامور بغير اسمائها ، فتدعو الاحتيال ذكاء ، والثرثرة معرفة ، والضعف ليناً ، والجبانة إباء .

والعبودية العوجاء ، وهي التي تحرّك بالخوف ألسنـة الضعفـاء

فيتكلمون بما لا يشعرون ، ويتظاهرون بما لا يضمرون ، ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره .

والعبودية الحدباء ، وهي التي تقود قوماً بشرائع قوم آخرين .

والعبودية الجرباء ، وهي التي تتوّج أبناء الملوك ملوكاً .

والعبودية السوداء ، وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الابرياء .

والعبودية للعبودية نفسها هي قوة الاستمرار .

*

ولما تعبت من ملاحقة الاجيال ، ومللت النظر الى مواكب الشعوب والامم ، جلست وحيداً في وادي الاشباح حيث تختبىء خيالات الازمنة الغابرة وتربض ارواح الازمنة الآتية . هناك رأيت شبحاً هزيلاً يسير منفرداً محدقاً الى وجه الشمس فسألته : من أنت وما اسمك ؟

قال : اسمي الحرية .

قلت : وأين أبناؤك ؟

قال : واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد .

ثم توارى عن عيني وراء الضباب .

المليك السجين

خفّف عنك أيها المليك الاسير ، فلست في سجنك اشد بلاء مني في جسدي .

اربض وكن متجلداً يا أبا الاهوال ، فالاضطراب امام النوائب حريّ ببنات آوى ، ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجان .

سكّن روعك يا فتى العزم وانظر اليّ فانا بين عبيد الحياة مثلك بين قضبان القفص ، وما الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روحي ولكنه يخشى الاقتراب اليك .

كلانا منفي عن بلاده بعيد عن اهله واحبابه ، فخفّض عليك جأشك وكن مثلي صابراً على مضض الايام والليالي ، ساخراً بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم افرادهم .

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرشٌ لا يسمعون ؟

لقد صرخت قبلك في آذانهم فلم استوقف غير اشباح الدجى ، وتفحصت مثلك طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبراً امام المقيدين بالسلاسل ، وضعيف يترفع متصلباً امام المسجونين في الاقفاص .

انظر أيها المليك الجبار ، انظر الى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ، تفرس في وجوههم تجد في ملامحهم ما كنت تراه في سحنات ادنى رعاياك واعوانك في مجاهل الصحراء ، فمنهم من يشبه الارنب بضعف قلبه ، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله ، ومنهم من يضارع الافعى بخبثه ، ولكن ليس بينهم من له سلامة الارنب وذكاء الثعلب وحكمة الافعى .

انظر فهذا كالخنزير قذارة اما لحمه فلا يؤكل . وهذا كالجاموس خشونة اما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنتين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيبه في الهياكل . وتلك كالطاووس تيهاً واعجاباً اما ريشها فمستعار .

وانظر ايها السلطان المهيب ، انظر الى تلك القصور والمعاهد ، فهي اوكار ضيقة يسكنها الانسان مفاخراً بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم ، مغتبطاً بصلابة جدرانها التي تفصله عن اشعة الشمس . هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها أزاهر الشباب ، وتترمد في زواياها جمرة الحب ، وتتحول في فضائها رسوم الاحلام الى اعمدة من دخان . هي سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع ، وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت .

وانظر أيها الأسير الجليل ، انظر الى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة الضيقة ، فهي اودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتختبىء الخوارج بين جنباتها . هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب والرغائب ، تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب . بل هي غابة الاهوال تسكنها حيوانات داجنة

المظاهر ، معطرة الاذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضي شرائعها ببقاء
الانسب بل بدوام الاروغ والاحيل ، ولا تؤول تقاليدها الى الافضل
والاقوى بل الى الأخبث والأكذب . امـــا ملوكها فليست أسداً
نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضبُع وألسنة
العقارب ونقيق الضفادع .

*

فدتك روحي ايها المليك السجين ، فقد اطلت الوقوف لديك واسهبت
بالكلام امامك . ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك
المخلوعين ، وهي النفس السجينـة المستوحشة تستأنس بالسجناء
والمستوحشين . فسامح فتى يلوك الكلام متسلياً به عن الطعـــام ،
ويرتشف الافكار مستعيضاً بها عن الشراب .

الى اللقاء ايها الجبار المهيب ، فإن لم يكن اللقاء في هذا العالم الغريب
فسيكون في عالم الاشباح حيث تجتمع ارواح الملوك بارواح الشهداء .

يسوع المصلوب

كتبت يوم الجمعة الحزينة

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الانسانية من رقادها العميق وتقف امام اشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلقة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب . . . وعندما تغيب الشمس عن مآتي النهار تعود الانسانية فتركع مصلية امام الاصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل .

اليوم تقود الذكرى ارواح المسيحيين من جميع اقطار العالم الى جوار اورشليم فيقفون هناك صفوفاً صفوفاً قارعين صدورهم ، محدقين الى شبح مكلل بالاشواك ، باسط ذراعيه امام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت الى اعماق الحياة . . . ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون فيضطجعوا جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول .

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء اوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عالٍ صامتين متهيبين مصغين الى صوت فتى يقول لقاتليه : « يا ابتاه ، اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون » . . . ولكن لا تكتنف السكينة اصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون

والشعراء فيكفنوا ارواحهم بصفحات الكتب البالية .

ان النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى والحلل يخرجن اليوم من منازلهن ليشاهدن المرأة الحزينة الواقفة امام الصليب وقوف الشجرة اللينة امام عواصف الشتاء ، ويقتربن منها ليسمعن انينها العميق وغصاتها الأليمة .

اما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الايام الى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيهة ويلتفتون الى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الأرض والسماء . ولكن عندما تمل عيونهم النظر الى هــذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين .

في مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الانسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصري ثم تطبق اجفانها وتنام نوماً عميقاً . اما الربيع فيظل مستيقظاً متبسماً سائراً حتى يصير صيفاً مذهّب الملابس معطر الأذيال .

الانسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على ابطال الاجيال . ولو كانت الانسانية رجلاً لفرحت بمجدهم وعظمتهم .

الانسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف امام العاصفة الهائلة التي تهصر بسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الاقذار المنتنة .

الانسانية ترى يسوع الناصري مولوداً كالفقراء عائشاً كالمساكين

مهاناً كالضعفاء مصلوباً كالمجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كل ما تفعله لتكريمه .

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ، ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية .

ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجعاً بل عاش ثائراً وصلب متمرداً ومات جبّاراً .

لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الاجنحة المعوجة .

لم يجيء يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية .

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخشَ اعداءه ولم يتوجع امام قاتليه بل كان حراً على رؤوس الاشهاد جريئاً امام الظلم والاستبداد ، يرى البثور الكريهة فيبضعها ، ويسمع الشر متكلماً فيخرسه ، ويلتقي الرياء فيصرعه .

لم يهبط يسوع من دائرة النور الاعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها الأديرة والصوامع ، ويستهوي الرجال الاشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً ، بل جاء ليبث في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوّض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على اجساد الضعفاء المساكين .

لم يجيء يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة

في جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة ، بل جـاء ليجعل قلب الانسان هيكلاً ونفسه مذبحاً وعقله كاهناً .

هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادىء التي صلب لأجلها مختـاراً ، ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيج الغلبة والانتصار .

وانت ايها الجبار المصلوب ، الناظر من اعالي الجلجلة الى مواكب الاجيال ، السامع ضجيج الأمم ، الفاهم احلام الابدية ، انت عـلى خشبة الصليب المضرجة بالدماء اكثر جلالاً ومهابـة من الف ملك على الف عرش في الف مملكة . بل انت بين النزع والموت أشد هولاً وبطشاً من الف قائد في الف جيش في الف معركة .

انت بكآبتك اشد فرحـاً من الربيع بأزهـاره ، أنت بأوجاعك اهـدأ بالاً من الملائكة بسمائها ، وانت بين الجلادين اكثر حرية من نور الشمس .

ان اكليل الشوك على رأسك هو اجلّ واجمل من تاج بهـرام ، والمسمار في كفك اسمى وافخم من صولجـان المشتري ، وقطرات الدمـاء على قدميك اسنى لمعاناً من قلائد عشتروت . فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لانهم لا يدرون كيف ينوحون عـلى نفوسهم ، واغفر لهم لأنهم لا يعلمون أنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور .

على باب الهيكل

قد طهّرتُ شفتيّ بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ، ولما فتحت شفتيّ للكلام وجدتني أخرس .

كنت اترنم باغاني الحب قبل ان اعرفه ، ولما عرفته تحولت الالفاظ في فمي الى لهاث ضئيل ، والانغام في صدري الى سكينة عميقة .

وكنتم ايها الناس فيما مضى تسألونني عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت احدثكم واقنعكم . اما الآن ، وقد غمرني الحب بوشاحه ، فجئت بدوري اسألكم عن مسالكه ومزاياه ، فهل بينكم من يجيبني ؟ جئت اسألكم عما بي واستخبركم عن نفسي ، فهل بينكم من يستطيع ان يبين قلبي لقلبي ويوضح ذاتي لذاتي !

الا فاخبروني ما هذه الشعلة التي تتقد في صدري وتلتهم قواي وتذيب عواطفي وميولي !

وما هذه الايدي الخفية الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحدة والانفراد ، وتسكب في كبدي خمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الاوجاع ؟

وما هذه الاجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فاسهر مترقباً ما لا اعرفه ، مصغياً الى ما لا اسمعه ، محدقاً الى ما لا أراه ،

مفكراً ربما لا افهمه ، شاعراً ربما لا ادركه ، متأوهاً لان في التأوه غصات أحب لديّ من رنّة الضحك والابتهاج ، مستسلماً الى قوة غير منظورة تميتني وتحييني ثم تميتني وتحييني حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فأنام اذ ذاك وبين اجفاني الذابلة ترتعش اشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري تتمايل خيالات الاحلام .

*

وما هذا الذي ندعوه حباً ؟

اخبروني ما هذا السر الخفي الكامن خلف الدهور المختبىء وراء المرئيات الساكن في ضمير الوجود ؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سبباً لجميع النتائج وتأتي نتيجة لجميع الاسباب ؟

ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلماً اغرب من الحياة واعمق من الموت ؟

اخبروني ايها الناس — اخبروني هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة اذا ما لمس الحب روحه باطراف اصابعه ؟

هل بينكم من لا يترك اباه وامه ومسقط رأسه عندما تناديه الصبية التي احبها قلبه ؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحاري ويجتاز الجبال والاودية ليلتقي المرأة التي اختارتها روحه ؟

أي فتىً لا يتبع قلبـــه الى اقاصي الارض اذا كان له في اقـاصي الأرض حبيبة يستطيب نكهة انفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنّة صوتها ؟

اي بشري لا يحرق نفسه بخوراً امام إله يسمع ابتهـاله ويستجيب صلواته ؟

*

وقفت بالامس على باب الهيكل اسأل العابرين عن خفايا الحب ومزاياه .

فمر امامي كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً : الحب ضعف فطري ورثناه عن الانسان الاول .

ومرّ فتى قوي الجسم مفتول الساعدين وقال مترنمـاً : الحب عزم يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضي الاجيال ومستقبلها .

ومرّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهدة : الحب سم قتّال تتنفسه الافاعي السوداء المتقلبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشراً في الفضاء ثم يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترشفه الارواح الظامئـة فتسكر دقيقة ثم تصحو عاماً ثم تموت دهراً .

ومرّت صبية موردة الوجنتين وقالت مبتسمة : الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر في الأرواح القويـة فيجعلها تتعـالى متمجدة امـــام كواكب الليل وتسبح مترنمة امام شمس النهار .

ومرّ رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً : الحب جهالة عمياء تبتدىء ببدء الشباب وتنتهي بنهايته .

ومرّ رجل ذو وجه صبيح وملامح منفرجة وقال فرحاً : الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الاشياء كما يراها الآلهة .

ومرّ اعمى يجس الارض بعكازه وقال منتحباً : الحب ضباب كثيف يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود او يجعلها لا ترى سوى اشباح ميولها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلايا الوادي .

ومرّ شاب يحمل قيثارة وقال منغماً : الحب شعاع سحري ينبثق من اعماق الذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً في مروج خضراء والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة .

ومرّ هرم منحني الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً : الحب راحة الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في اعماق الابدية .

ومرّ طفل ابن خمس وهتف ضاحكاً : الحب ابي والحب امي ، ولا يعرف الحب سوى أبي وامي .

وانقضى النهار والناس يمرون امام الهيكل وكل يصور نفسه متكلماً عن الحب ويبوح بامانيه معلناً سر الحياة .

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول : الحياة نصفان : نصف متجلد ونصف ملتهب . فالحب هو النصف الملتهب .

فدخلت الهيكل اذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً : اجعلني يا رب طعاماً للهيب — اجعلني ايها الاله مأكلاً للنار المقدسة . آمين .

ايها الليل

يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين .

يا ليل الاشباح والارواح والاخيلة .

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار .

ايها الجبار الواقف بين اقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بالف عين الى اعماق الحياة ، المصغي بألف أذن الى أنة الموت والعدم .

أنت ظلام يرينا انوار السماء ، والنهار نور يغمرنا بظلمة الارض .

أنت امل يفتح بصائرنا امام هيبة اللانهاية ، والنهار غرور يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية .

أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الارواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والغرائب .

أنت عادل يجمع بين جنحي الكرى احلام الضعفاء باماني الاقوياء ، وانت شفوق يغمض بأصابعه الخفية اجفان التعساء ويحمل قلوبهم الى عالم اقل قساوة من هذا العالم .

بين طيات اثوابك الزرقاء يسكب المحبون انفاسهم ، وعلى قدميك

المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفي راحتيك المعطرتين بطيب الاودية يضيع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم فأنت نديم المحبين وانيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين .

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الانبياء ، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين . فأنت ملهم الشعراء والموحي الى الانبياء والموعز الى المفكرين والمتأملين .

*

عندما ملّت نفسي البشر وتعبت اجفاني من النظر الى وجه النهار سرت الى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع اشباح الأزمنة الغابرة .

هنالك وقفت امام كائن اقتم جامد مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والاودية .

هنالك حدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لحفيف الاجنحة غير المنظورة ، شاعراً بملامس ملابس السكوت ، مستبسلاً امام مخاوف الظلام .

هنالك رأيتك ايها الليل شبحاً هائلاً جميلاً منتصباً بين الأرض والسماء ، متشحاً بالسحاب ، ممنطقاً بالضباب ، ضاحكاً من الشمس ، ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين امام الاصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج ، محملقاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب أسرّة الاطفال ، باكياً لابتسام الساقطات ، مبتسماً لبكاء العشاق ، رافعاً بيمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس .

هناك رأيتك ايها الليل ورأيتني ، فكنت بهولك لي اباً وكنت بأحلامي لك ابناً ، فأزيحت من بيننا ستائر الاشكال وتمزق عن وجهينا نقاب الظن والتخمين ، فأبحت لي اسرارك ونياتك ، وأبنت لك اماني وآمالي ، حتى اذا تحولت اهوالك الى انغام اعذب من همس الازهار ، وتبدّلت مخاوفي بأنس اطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتني اليك ، واجلستني على منكبيك ، وعلمت عينيَّ النظر ، وعلمت اذنيَّ السمع ، وعلمت شفتيَّ الكلام ، وعلمت قلبي محبة ما لا يحبه الناس وكره ما لا يكرهونه ، ثم لمست بأناملك افكاري فتدفقت افكاري نهراً راكضاً مترنماً بجرف الاعشاب الذابلة ، ثم قبّلت بشفتيك روحي فتمايلت روحي شعلة متقدة تلتهم الانصاب اليابسة .

لقد صحبتك ايها الليل حتى صرت شبيهاً بك ، وألفتك حتى تمازجت ميولي بميولك ، وأحببتك حتى تحول وجداني الى صورة مصغرة لوجودك . ففي نفسي المظلمة كواكب ملتمعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس في الصباح . وفي قلبي الرقيب قمر يسعى تارةً في فضاء متلبد بالغيوم وطوراً في خلاء مفعم بمواكب الاحلام . وفي روحي الساهرة سكينة تبيح بمفاعيلها سرائر المحبين وترجع خلاياها صدى صلوات المتعبدين . وحول رأسي غلاف من السحر تمزقه حشرجة المنازعين ثم تخيطه اغاني المتشببين .

انا مثلك ايها الليل وهل يحسبني الناس مفاخراً اذا ما تشبهت بك وهم اذا تفاخروا يتشبهون بالنار !

انا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه .

انا مثلك بميولي واحلامي وخلقي واخلاقي .

انا مثلك وان لم يتوجني المساء بغيومه الذهبية .

انا مثلك وان لم يرصّع الصباح أذيالي بأشعته الوردية .

انا مثلك وان لم اكن ممنطقاً بالمجرة .

انا ليل مسترسل منبسط هادىء مضطرب وليس لظلمتي بدء وليس لاعماقي نهاية ، فاذا ما انتصبت الارواح متباهية بنور افراحها تتعالى روحي متجمدة بظلام كآبتها .

انا مثلك ايها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي اجلي .

الجنية الساحرة

الى اين تسيرين بي ايتها الساحرة ؟

حتى مَ اتبعك على هـذه الطريق الوعرة ، المنسابة بين الصخور ، المفروشة بالاشواك ، المتصاعدة باقدامنا نحو الاعالي ، الهابطة بنفسينا الى الاعماق ؟

قد تمسكت باذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق امه ، متناسياً ما بي من الاحلام، محدقاً الى ما فيكِ من الجمال، متعامياً عن مواكب الاشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة في جسدك .

قفي بي هنيهة لأرى وجهك . انظري اليَّ دقيقة لعلي ارى في عينيكِ اسرار صدرك ، وافهم من ملامحكِ مخبآت نفسكِ .

قفي قليلًا ايتهـا الجنية ، فقد مللت المسير وارتعدت روحي من مخاوف الطريق . قفي فقد بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة ، ولن اسير خطوة اخرى حتى تستعلن روحي نيات روحكِ ، ويستوضح قلبي خزائن قلبكِ .

*

اسمعي ايتها الجنيّة الساحرة .

كنت بالامس طائراً حراً اتنقل بين السواقي واسبح في الفضـاء

واجلس على اطراف الغصون عند المساء متـأملاً بالقصور والهياكل في مدينة الغيوم المتلونة التي تبنيهـا الشمس عند الاصيـل وتهدمها قبل الغروب .

بل كنت كالفكر اسير منفرداً في مشارق الارض ومغاربها ، فرحاً بمحاسن الحياة وملذاتها ، مستقصياً خفايا الوجود واسراره .

بل كنت كالحلم اسعى تحت جنح الليل وادخل من شقوق النوافذ الى خدور العذارى النائمات واتلاعب بعواطفهن . ثم اقف بجانب اسرّة الفتيان واثير ميولهم. ثم اجلس بقرب مضاجع الشيوخ واستجلي افكارهم.

واليوم ، وقد لقيتك ايتها الساحرة ، وتسممت بقبل يديكِ ، فقد اصبحت مثل أسير اجر قيودي الى حيث لا ادري ، بل صرت مثل نشوان استزيد من الخمرة التي سلبتني ارادتي والثم الكف التي صفعت وجهي .

ولكن قفي قليلاً ايتها الساحرة ، فها قد استرجعت قواي و كسرت القيود التي برت قدمي وسحقت الكأس التي شربت منهـا السم الذي استطبيته . فماذا تريدين ان نفعل وعلى اية طريق تريدين ان نسير !

قد استرددت حريتي فهل ترضين بي رفيقاً حراً « يحدق الى وجه الشمس باجفان جامدة ويقبض على النار باصابع غير مرتعشة ؟ »

لقد فتحت جناحي ثانية فهل تصحبين فتى يصرف الايام متنقلاً كالنسر بين الجبال ، ويقضي الليالي رابضاً كالاسد في الصحراء ؟

هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً ويأباه سيداً ؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

هل تراحين الى ميول نفس ترتعش امام العاصفة ولكنها لا تنهصر ، وتثور مع الزوابع ولكنها لا تُقتلع من مكانها ؟

هل ترضين بي صاحباً لا يَستعبِد ولا يُستعبَد ؟

اذاً هذه يدي فهزيها بيدك الجميلة . وهذا جسدي فضميه بذراعيك الناعمتين . وهذا فمي فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء .

قبل الانتحار

في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالامس المرأة التي أحبها قلبي .

الى هذه المساند الوردية الناعمة قد ألقت رأسها الجميل ، ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر ، ممزوجة بقطرة من العطر .

كل ذلك قد كان بالأمس والأمس حلم لا يعود ، اما اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبها قلبي الى ارض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

ان آثار اصابع المرأة التي احبها قلبي لم تزل ظاهرة على بلور مرآتي ، وعطر انفاسها ما برح متضوعاً بين طيات اثوابي ، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي . ولكن المرأة نفسها — المرأة التي احبها قلبي — قد رحلت الى مكان قصي يدعى وادي الهجر والسلوان ، اما آثار اصابعها وعطر لماتها واشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد وعند ذلك افتح نوافذ منزلي لتدخل امواج الهواء وتجرف بتيارها كل ما تركته لي تلك الساحرة الحسناء .

ان رسم المرأة التي أحبها قلبي لم يزل معلقاً بجانب مضجعي ، ورسائل الحب التي بعثت بها الي ما برحت في العلبة الفضية المرصعة بالعقيق والمرجان ، وذؤابة الشعر الذهبية التي حبتني بها تذكاراً لم تخرج

فقط من الغلاف الحريري المبطن بالمسك والبخور – جميع هذه الاشياء ستبقى في اماكنها حتى الصباح – وعند مجيء الصباح افتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء ويحملها الى ظلمة العدم الى حيث تقطن السكينة الخرساء .

ان المرأة التي أحبها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي احبتهن قلوبكم ايها الفتيان . هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الافعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التي أحبها قلبي ايام الطفولة فكنت اركض وراءها في الحقول واتمسك بأذيالها في الشوارع .

وعرفتها ايام الصبا فكنت ارى خيال وجهها في وجوه الكتب والاسفار واشاهد خطوط قامتها بين غيوم السماء واسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقي .

وعرفتها ايام الرجولة فكنت اجالسها محدثاً واسألها مستفتياً واقترب منها شاكياً ما في قلبي من الاوجاع باسطاً ما في روحي من الاسرار .

كل ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود ، اما اليوم فقد ذهبت تلك المرأة الى ارض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

*

اما اسم المرأة التي أحبها قلبي فهو الحياة .

فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا ، وتستغوي ارواحنا ،

وتغمر وجداننا بالوعود ، فان مطلت اماتت فينا الصبر وان برّت ايقظت فينا الملل .

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها .

الحياة امرأة ترتدي الايام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء .

الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلاً وتأباه حليلاً .

الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن يرَ عهرها يكره جمالها .

يابني أمي

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون ان ابني لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام وهياكل مسقوفة بالاحلام ، ام تريدون ان اهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وانقض ما رفعه المراؤون والخبثاء ؟

ماذا تريدون ان افعل يا بني امي ؟

أأهدل كالحمائم لارضيكم ام ازمجر كالاسد لأرضي نفسي ؟

قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحتُ امامكم فلم تبكوا ، فهل تريدون ان اترنم وانوح في وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعاً وخبز المعرفة أوفر من حجارة الاودية ، ولكنكم لا تأكلون وقلوبكم تختلج عطشاً ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم فلماذا لا تشربون ؟

للبحر مدّ وجزرٌ ، وللقمر نقص وكمال ، وللزمن صيف وشتاء ، اما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير ، فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟

ناديتكم في سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهببتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين : اين العدو لنصرعه ؟ عند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورجله ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الاحلام .

قلت لكم تعالوا نصعد الى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم فأجبتم قائلين : في اعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا وفي كهوفه قبروا فكيف نتركه ونذهب الى حيث لم يذهبوا ؟

قلت لكم هلموا نذهب الى السهول لأريكم مناجم الذهب و كنوز الارض فأجبتم قائلين : في السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق .

قلت لكم تعالوا نذهب الى الساحل حيث يعطي البحر خيراته فأجبتم قائلين : ضجيج اللجة يخيف ارواحنا وهول الاعماق يميت اجسادنا .

*

لقد كنت احبكم يا بني امي وقد اضر بي الحب ولم ينفعكم . واليوم صرت اكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية .

كنت اشفق على ضعفكم يا بني امي والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئاً ، واليوم صرت ارى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازاً وتنقبض ازدراء .

كنت ابكي على ذلكم وانكساركم وكانت دموعي تجري صافية كالبلور ، ولكنها لم تغسل ادرانكم الكثيفة بل ازالت الغشاء عن عيني ، ولا بللت صدوركم المتحجرة بل اذابت الجزع في قلبي ، واليوم صرت اضحك من اوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتي بعدها .

ماذا تريدون مني يا بني امي ؟

أتريدون ان اريكم اشباح وجوهكم في احواض المياه الهادئة ؟ تعالوا إذن وانظروا ما اقبح ملامحكم .

هلموا وتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد ، وعرك السهر عيونكم فاصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعدة ، وقبّل الموت شفاهكم فأمست صفراء كأوراق الخريف .

ماذا تطلبون مني يا بني امي – بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من ابنائها ؟

ارواحكم تنتفض في مقابض الكهان والمشعوذين ، واجسادكم ترتجف بين انياب الطغـــاة والسفاحين ، وبلادكم ترتعش تحت اقدام الاعداء والفاتحين ، فماذا ترجون من وقوفكم امام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلفة بالصدإ ، ورماحكم مكسورة الحراب ، وتروسكم مغمورة بالتراب ، فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال ؟

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء ، فلماذا تحيون والموت راحة الاشقياء ؟

*

انما الحياة عزمٌ يرافق الشبيبة ، وجدٌّ يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيخوخة ، اما انتم يا بني امي فقد وُلدتم شيوخاً عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم اطفـالاً تتقلبون على الاوحال وتترامون بالحجارة .

انما الانسانية نهر بلوري يسير متدفقاً مترغاً حاملاً اسرار الجبال الى اعماق البحر . اما انتم يا بني امي فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات في اعماقها وتتلوى الافاعي على جنباتها .

انما النفس شعلة زرقاء متّقدة متدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالانواء وتنير اوجه الآلهة — اما نفوسكم يا بني أمي فرماد تذريه الرياح على الثلوج وتبدده العواصف في الاودية .

انا اكرهكم يا بني امي لانكم تكرهون المجد والعظمة .

انا احتقركم لانكم تحتقرون نفوسكم .

انا عدوكم لانكم اعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون !!!

نحن وانتم

نحن ابناء الكآبة وانتم ابناء المسرات .

نحن ابناء الكآبة ، والكآبة ظل إله لا يسكن في جوار القلوب الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة ، والحزن كبير لا تسعه النفوس الصغيرة . نحن نبكي وننتحب ايها الضاحكون ، ومن يغتسل بدموعه مرة يظل نقياً الى نهاية الدهور .

انتم لا تعرفوننا اما نحن فنعرفكم . انتم سائرون بسرعة مع تيار نهر الحياة فلا تلتفتون نحونا ، اما نحن فجالسون على الشاطىء نراكم ونسمعكم . انتم لا تعون صراخنا لان ضجيج الايام يملأ آذانكم ، اما نحن فنسمع اغانيكم لان همس الليالي قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لانكم واقفون في النور المظلم ، اما انتم فلا تروننا لاننا جالسون في الظلمة المنيرة .

نحن ابناء الكآبة . نحن الانبياء والشعراء والموسيقيون . نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الآلهة ونملأ بحبات صدورنا حفنات الملائكة ، وانتم — انتم ابناء غفلات المسرات ويقظات الملاهي — انتم تضعون قلوبكم بين ايدي الحلو لان اصابع الحلو لينة الملامس وترتاحون بقرب الجهالة لان بيت الجهالة خالٍ من مرآة ترون فيها وجوهكم .

نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير

السواقي، اما انتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرتقة القيود وعويل الهاوية .

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من اجفان الليل في كبد الصباح ، اما انتم فتبتسمون ومن جوانب افواهكم المبتسمة تنهرق السخرية مثلما يسيل سم الافعى على جرح الملسوع .

نحن نبكي لاننا نرى تعاسة الارملة وشقاء اليتيم ، وانتم تضحكون لانكم لا ترون غير لمعان الذهب . نحن نبكي لاننا نسمع أنة الفقير وصراخ المظلوم، وانتم تضحكون لانكم لا تسمعون سوى رنة الاقداح .

نحن نبكي لان ارواحنا منفصلة بالاجساد عن الله ، وانتم تضحكون لان اجسادكم تلتصق مرتاحة بالتراب .

*

نحن ابناء الكآبة وانتم ابناء المسرات، فهلموا نضع مآتي كآبتنا واعمال مسراتكم امام وجه الشمس .

انتم بنيتم الاهرام من جماجم العبيد ؛ والاهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الاجيال عن خلودنا وفنائكم . ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الاحرار والباستيل لفظة ترددها الامم فتباركنا وتلعنكم . انتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء واقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء ، وها قد اصبحت بابل ونينوى نظير آثار اخفاف الابل على رمال الصحراء . اما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا

الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً ، وضربنا النهاوند على الاوتار فاستحضرت الاوتار ارواح المحبين الحائمة في الفضاء ، ورسمنا مريم بالخطوط والالوان فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة .

انتم تتبعون الملاهي واظافر الملاهي مزقت الفَ الفٍ من الشهداء في مسارح رومية وانطاكية . ونحن نلاحق السكينة واصابع السكينة نسجت الالياذة وسفر ايوب والتائية الكبرى . انتم تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت الف موكب من ارواح النساء الى هاوية العار والفجور . ونحن نعانق الوحدة وفي ظلال الوحدة تجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي . انتم تسامرون المطامع واسياف المطامع اجرت الف نهر من الدماء . ونحن نرافق الخيال وايدي الخيال انزلت المعرفة من دائرة النور الاعلى .

*

نحن ابناء الكآبة وانتم ابناء المسرات ، وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة المسالك ضيقة المعابر لا تجتازها خيولكم المطهمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة .

نحن نشفق على صغارتكم وانتم تكرهون عظمتنا ، وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتاراً بنا وبكم .

نحن ندنو منكم كالاصدقاء وانتم تهاجموننا كالاعداء ، وبين الصداقة والعداوة هوّة عميقة مملوءة بالدموع والدماء .

نحن نبني لـكم القصور وانتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال القصر وظلمة القبر تسير الانسانية باقدام من حديد .

نحن نفرش سبلكم بالورود وانتم تغمرون مضاجعنا بالاشواك ، وبين اوراق الوردة واشواكها تنام الحقيقة نوماً عميقاً ابدياً .

منذ البدء وانتم تصارعون قوانا اللينـة بضعفكم الخشن . تغلبوننا ساعة فتضجون فرحين كالضفادع ونغلبكم دهراً ونظل صامتين كالجبابرة. قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به وتجدفون عليه ، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من عن صليبه وسار كالجبار يتغلب على الاجيال بالروح والحق ويملأ الارض بمجده وجماله .

قد سممتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلي بن ابي طالب وخنقتم مدحت باشا وهؤلاء يحيون الآن كالابطال الظافرين امام وجه الابديـة . اما انتم فتعيشون في ذاكرة الانسانية كجثث فـوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم .

نحن ابناء الكآبة والكآبة غيوم تمطر العالم خيراً ومعرفة وانتم ابناء المسرات ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمهـا الرياح وتبددها العناصر .

أبناء الآلهة واحفاد القرود

ما اغرب الدهر وما اغربنا! فقد تغيّر الدهر وغيّرنا وسار الى الامام وسيّرنا واسفر عن وجهه فأذهلنا وفرّحنا .

كنا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فاصبحنا اليوم نحبّه ونهواه ، بل صرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم اسراره وخفاياه .

بالأمس كنا ندبّ متحذرين كالاشباح المرتعشة بين اهوال الليل ومخاوف النهار ، فاصبحنا اليوم نسير متحمسين نحو قمم الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة والرعود القاصفة .

كنا بالأمس نأكل الخبز معجوناً بالدماء ونشرب الماء ممزوجاً بالدموع ، فصرنا اليوم نتناول المن من ايدي عرائس الصباح ونرشف الخمر معطرة بانفاس الربيع .

بالأمس كنا العوبة في يد القضاء وكان القضاء جباراً ثملاً يتلوى بنا الى اليمين والى اليسار ، اما اليوم فقد صحا القضاء من سكره فاصبحنا نلاعبه فيلعب ، ونداعبه فيضحك ، ثم نقوده وراءنا فينقاد.

كنا بالأمس نحرق البخور امام الاصنام وننحر الضحايا امام الآلهة الغضوب ، اما اليوم فصرنا لا نحرق بخوراً الا لنفوسنا ولا نقدم ذبيحة لغير ذواتنا لان اعظم الآلهة وأبهاهم جمالاً قد جعل هيكله في صدورنا .

٤

بالأمس كنا نخضع للملوك ونلوي رقابنا امام السلاطين ، اما اليوم فصرنا لا ننحني الا للحق ولا نتبع غير الجمال ولا نطيع سوى المحبة .

كنا بالأمس نخشع بأبصارنا امام الكهان ونتهيب رؤية العرافين، اما اليوم وقد تغير الدهر وغيّرنا فاصبحنا لا نحـدق الى غير وجه الشمس ولا نصغي الا لنغمة البحر ولا نهتز الا مع الزوابع .

بالأمس كنا نهـدم عروش نفوسنا لنبني منها قبوراً لاجدادنا ، اما اليوم فقـد تحولت نفوسنا مذابح مقدسة لا تدنو منهـا اشباح القرون الغابرة ولا تلامسها اصابع الاموات البالية .

كنا فكراً صامتاً مختبئاً في زوايا النسيان فاصبحنا صوتاً ترتجف له اعماق الفضاء .

كنا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد فصرنا ناراً متقـدة فوق اكتاف الاودية .

*

وكم سهرنا الليالي متوسدين التراب ملتحفين بالثلوج باكين على إلفٍ أضعناه ورزقٍ فقدناه . وكم صرفنا الايام رابضين كنعاج لا راعي لها نقضم افكارنا ونلوك عواطفنا ونظل جائعين ظامئين . وكم وقفنا بـين نهار زائل ومساء آت نائحين على شباب ذابل مشتاقين الى من لا نعرفه مستوحشين لاسباب نجهلها محدقين الى فضاء خال مظلم ، مصغين الى أنة السكون والعدم .

تلك اجيال مرت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، امـا اليوم

وقد صحا الفضاء وصحونا ، فصرنا نقضي الليالي البيضاء على اسرّة علوية ، مساهرين الخيال ، مسامرين الفكر ، معانقين الميول ، تتمايل حولنا شعلات النار فنقبض عليها باصابع غير مرتعشة وتتصاعد حولنا ارواح الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة ، وتمرّ بنا اجواق الملائكة فنستهويها بشوق قلوبنا ونسكرها بنغمة ارواحنا .

*

كنا بالأمس واصبحنا اليوم ، وهذه مشيئة الآلهة بابناء الآلهة ، فما هي ارادتكم يا ابناء القرود ؟

هل سرتم خطوة واحدة الى الامام منذ انبثقتم من شقوق الارض ؟ ام رفعتم ابصاركم نحو الاعالي منذ فتحت الشياطين ابصاركم ؟ ام تلفظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبّلت افواه الافاعي افواهكم ؟ ام اصغيتم هنيهة لأغنية الحياة منذ اغلق الموت آذانكم ؟

منذ سبعين الف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الازقة القذرة وابالسة الخمول تقودكم وقيود العبودية تتمسك باقدامكم واجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فانتم اليوم كما كنتم بالأمس وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتكم في البدء .

كنا بالأمس فاصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة بابناء الآلهة . فما هي سنّة القرود بكم يا ابناء القرود ؟

بين ليل وصباح

أُسكت يا قلبي فالفضاءُ لا يسمعك .

اسكت فالاثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل اغانيك واناشيدك .

اسكت فاشباح الليل لا تحفل بهمس اسرارك ومواكب الظلام لا تقف امام احلامك .

اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً يلاقي الصباح قوياً . ومن يهوى النور فالنور يهواه .

اسكت يا قلبي واسمعني متكلماً .

في الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان ثائر .

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور .

ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك .

رأيت جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت ونظرت حولي رأيت البركان هائجاً ولكنني لم اسمع الشحرور مغرداً ولا رأيته مرفرفاً .

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والاودية ساتراً باكفانه البيضاء اجسام الزنابق الهامدة .

ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينة الدهور وليس بينها من يتمايل راقصاً ولا من يجثو مصلياً .

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .

في اليقظة رأيت الحزن والأسى فأين ذهبت افراح الحلم ومسراته ؟ أنّى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟ وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيها وآمالها ؟

اصغ يا قلبي واسمعني متكلماً :

كانت نفسي بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها الى اعماق الأرض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية .

ولقد أزهرت نفسي في الربيع واثمرت في الصيف ولما جاء الخريف جمعت اثمارها في اطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق ، فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسيرون في سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله الى الندب والولولة نظرتُ فلم أرَ في أطباقي سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي فتناولتها وأكلت فألفيتها مرّة كالعلقم ، حامضة كالحصرم . فقلت لنفسي :

ويحي لقد وضعت في أفواه الناس لعنة ، وفي أجوافهم عداء ، فماذا ترى فعلت يا نفسي بالحلاوة التي امتصتها عروقك من أحشاء الأرض ، وبالأريج الذي تشربته قضبانك من نور الشمس ؟

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسي القوية المسنّة .

اقتلعتها بعروقها من التربة التي نمت فيها وترعرعت . اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى الف ربيع والف خريف .

وعدت فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر .

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن . و كنت اسهر بجانبها قائلاً : ان السهر يدنينا من النجوم . وكنت اسقيها بدمي ودموعي قائلاً : ان في الدم نكهة ، وفي الدموع حلاوة . ولما عاد الربيع أزهرت نفسي ثانية .

وفي الصيف أثمرت نفسي . ولما جاء الخريف جمعت اثمارها الناضجة باطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل فمرّ الناس أفراداً وجماعات ولكن لم يمد احد يده ليتناول منها .

فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ، لذيذة كالكوثر ، طيبة كالخمرة البابلية ، عطرة كأنفاس الياسمين . فصرخت قائلاً :

ان الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحق في اجوافهم، لان البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء .

ثم عدتُ وجلست في ظل شجرة نفسي المنفردة في حقل بعيد عن سبل الزمن .

*

اسكت يا قلبي حتى الصباح .

اسكت ، فالفضاء قد اتخمته رائحة الأشلاء فلن يتشرب انفاسك .

اصغ يا قلبي واسمعني متكلماً :

كانت بالامس فكرتي سفينة تتقلب بين امواج البحار وتتنقل مع الأهواء من شاطىء الى شاطىء .

ولقد كانت سفينة فكرتي خاليـــة الا من سبعة اكواب طافحة بالوان مختلفة تشابه الوان قوس قزح بنضارتها .

وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجـه البحار فقلت سأعود بسفينة فكرتي الفارغة الى ميناء البلد الذي ولدت فيه .

ثم أخذت أطـلي جوانب سفينتي بالوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كـذوب الشفق ، وأرسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبـة تجذب العين وتبهج البصيرة . ولما انتهيت من عملي وقـد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين : البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدي فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم وأدخلوني المديـنة ضاربين الدفوف ، نافخين الزمور .

فعلوا ذلك لأن خارج سفينتي كان مزخرفـاً بهجاً ولم يدخـل احد جوف سفينة فكرتي .

ولم يسأل أحدٌ ماذا جلبت فيها من وراء البحار .

ولم يدرِ أحد أني عدت بها فارغة الى الميناء .

عند ذلك قلت في سري : لقد ضللت الناس ، وبسبعة اكواب من الألوان قد كذبت على باصراتهم وبصائرهم .

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وابحرت ثانية .

سرتُ الى جزر الشرق فجمعت منها المرّ واللبان والند والصندل وادخلتها الى سفينتي .

والى جزر الغرب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع الحجارة الكريمة .

والى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشي والبرفير .

والى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزردة والسيوف المشرفية والرماح السمهرية وسائر انواع الأسلحة .

ملأت سفينة فكرتي بنفائس الارض وغرائبها ، وعدت الى ميناء بلدي قائلاً :

سوف يمجدني قومي ولكن عن جدارة . وسيدخلونني المدينة منشدين مزمرين ولكن عن استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج احد لملاقاتي ، ودخلت شوارع بلدي فلم يلتفت اليّ احد .

ووقفت في ساحاتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الارض وطرائفها فكانوا ينظرون إليّ والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عني .

فعدت الى الميناء كئيباً مستغرباً . ولكنني ما لمحت سفينتي حتى فطنت لأمرٍ كنت مشغولاً عنه بمنازع اسفاري ورغائبها . فهتفت قائلاً :

ان امواج البحار قد محت الطلاء عن جوانب سفينتي فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الأرياح والأنواء وحرارة الشمس الرسوم عن اشرعتها فظهرت كأثواب رمادية بالية .

لقد جمعت طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه الماء وعدت الى قومي فنبذوني لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية .

في تلك الساعة تركت سفينة فكرتي وذهبت الى مدينة الأموات وجلست بين القبور المكلسة مفكراً باسرارها .

أُسكت يا قلبي حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس اعماقك ، وكهوف الوادي لن ترجع بصداها رنات اوتارك .

أُسكت يا قلبي حتى الصباح . فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم ان كنت تستطيع الكلام .

هوذا موكب الصباح يا قلبي . فهل أبقى سكوت الليل في اعماقك أغنية تلاقي بها الصباح ؟

هوذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلة في اطراف الوادي . فهل ابقى هول الليل في جناحيك صلابة لتطير معها ؟

هوذا الرعيان يسيرون امام قطعانهم من الحظائر والمرابض . فهل أبقت لك اشباح الليل عزماً لتسير وراءها الى المروج الخضراء ؟

هوذا الفتيان والصبايا يمشون الهوينا نحو الكروم . فهلا نهضت ومشيت معهم ؟

قم يا قلبي . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . ومخاوف الليل قد اضمحلت مع احلامه السوداء .

قم يا قلبي وارفع صوتك مترنماً . فمن لم يشارك الصبح باغانيه كان من أبناء الظلام .

المخدرات والمباضع

هو متطرف بمبادئه حتى الجنون .

هو خيالي يكتب ليفسد اخلاق الناشئة .

لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت اركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية واصبح هذا العالم جحيماً وسكانه شياطين .

قهراً عما في اسلوبه الكتابي من الجمال فهو من اعداء الانسانية .

هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بان ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على نفوسهم .

قد قرأنا له الاجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم .

*

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون ، فأنا متطرف حتى الجنون ، أميل الى الهدم ميلي الى البناء ، وفي قلبي كرهٌ لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه ، ولو كان بامكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . اما قول بعضهم ان كتابي سم في دسم فكلام يبيّن الحقيقة من وراء نقاب كثيف — فالحقيقة

العارية هي انني لا امزج السم بالدسم بل اسكبه صرفاً . . . غير انني اسكبه في كؤوس نظيفة شفافة .

اما الذين يعتذرون عني امام نفوسهم قائلين : هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم . فهم الذين يحدقون الى لمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه سماً لأن معدهم الضعيفة لا تهضمه .

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ؟ ان الوقاحة تظهر نفسها بنفسها اما الخيانة فترتدي ملابس فصلت لغيرها .

*

يطلب الشرقيون من الكاتب ان يكون كالنحلة التي تطوف مرفرفة في الحقول جامعة حلاوة الازهار لتصنع منها اقراصاً من العسل .

ان الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه مأكلاً . وقد افرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم الى عسل تسيل امام النار ولا تجمد الا اذا وضعت على الثلج .

ويطلب الشرقيون من الشاعر ان يحرق نفسه بخوراً امام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففي ايامنا هذه مدّاحون يضارعون المتنبي ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنئون اكثر طلاوة من صفي الدين الحلي .

ويطلب الشرقيون من العالِم ان يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً ايامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم .

ويطلب الشرقيون من المفكر ان يعيد على مسامعهم ما قاله بيدبا وابن رشد وافرام السرياني ويوحنا الدمشقي وان لا يتعدى بكتابته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم وما يجيء بينهما من الحِكم والآيات التي اذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالاعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الافيون .

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون الى الامور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادىء والتعاليم الايجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة .

*

انما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الاوبئة حتى تعود السقم وألف الألم واصبح ينظر الى اوصابه واوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الارواح النبيلة والاجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عُدَّ ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية .

واطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون في شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها .

اما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الانواع متعددة الاشكال متباينة الالوان . وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تناسخت الامراض والعاهات بعضها عن بعض. وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له اطباء الشرق مخدراً جديداً .

واما الاسباب التي آلت الى وجود المخدرات فعديدة اهمها استسلام العليل الى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الاطباء وخوفهم من تهييج الالم الذي تحدثه الادوية الناجعة .

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الاطباء الشرقيون لمعالجة الامراض العائلية والوطنية والدينية :

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع اهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والافكار المرصعة ثم يتفقوا على ايجاد السلام بين الزوجين ، فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالاقوال والامثال المزركشة التي تليّن افكاره ولا تغيّرها . وهكذا يتم الصلح – الصلح الوقتي – بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودان قهراً عن ارادتهما الى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الاهل والانسباء فيعود الرجل الى اظهار نفوره ومقته والمرأة الى ازالة النقاب عن تعاستها . غير ان الذين أوجدوا الصلح في المرة الاولى يوجدونه ثانية ، ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق .

يتمرد قوم على حكومة جائرة او على نظام قديم فيؤلفون جمعية اصلاحية ترمي الى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون اللوائح والبرامج ويبعثون الوفود والممثلين، ولكن لا يمر شهر او شهران حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية او عهدت اليه بوظيفة . اما الجمعية الاصلاحية فلا نعود نسمع عنها شيئاً لان افرادها قد تجرعوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا الى السكينة والاستسلام .

تتمرد طائفة على رئيس دينها لأمور اولية فتنتقد شخصه وتنكر اعماله وتتبرم من مآتيه ثم تهدده باعتناقها مذهباً آخر اقرب الى العقل وابعد عن الاوهام والخرافات . ولكن لا يمر ردح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وارجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة الى شخص الرئيس والطاعة العمياء الى نفوس المرؤوسين العقوقين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره : اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقأ .

يشك القروي بتقى الرهبان واخلاصهم فيقول له زميله : أصمت فقد جاء في الكتاب : اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا افعالهم .

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له استاذه : ان الكسالى والمتوانين يختلقون لنفوسهم أعذاراً اقبح من الذنوب .

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها : ليست الابنة افضل من امها فالطريق التي سلكتها تسلكينها انت ايضاً .

يسأل الشاب مستفسراً معاني الزوائد الدينيـة فيقول له الكاهن : من لا ينظر بعين الايمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان .

وهكذا تمر الايام إثر الليالي ، والشرقي مضطجع على فراشه الناعم، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ، ثم يعود ويهجع جيلاً بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فاذا ما قـام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون اجفانهم المطبقـة بالنعاس الابدي ثم يقولون متثائبين : ما اخشنه فتى لا ينام ولا يدع النـاس ينامون ! ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان ارواحهم : هو كافر ملحد يفسد اخـلاق الناشئة ويهدم مباني الاجيـال ويرشق الانسانية بالسهام السامة .

قد سألت نفسي مرات ما اذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكّنات ، فكانت نفسي تجيبني بكلمـات مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يجدفون على اسمي ويتأففون من مبادئي ايقنت بحقيقة يقظتي وعلمت انني لست من المستسلمين الى الاحلام اللذيذة والخيالات المستحبة . بل من اولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقـة مغروسة بالاشواك والازهار محفوفـة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة .

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعني الاحتشام عن ادعائها ، ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلـة للافراد المستوحدين وتسير امامهم فيتبعونها قسر ارادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محدقين الى معانيها المهيبة .

وعندي ان الاحتشام في اظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الابيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب .

*

غداً يقرأ الأدباء المفكرون ما تقدم فيقولون متضجرين : هو متطرف ينظر الى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام ، وقد طالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا .

فلهؤلاء الادباء المفكرين اقول : انا اندب الشرق لان الرقص امام نعش الميت جنون مطبق .

انا ابكي على الشرقيين لان الضحك على الامراض جهل مركب .

انا انوح على تلك البلاد المحبوبة لان الغناء امام المصيبة العمياء غباوة عمياء .

انا متطرف لان من يعتدل باظهار الحق يبين نصف الحق ويبقي نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم .

انا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب احشائي ولا استطيع ان اجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى .

فان كان هناك من يريد ان يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي الى الانعطاف وتطرفي الى الاعتدال فعليه ان يريني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه .

ان كان هناك من يريد ان يشاهدني راقصاً ويسمعني مطبلاً ومزمراً فعليه ان يدعوني الى بيت العريس لا ان يوقفني بين المقابر .

السرجين المفضض

١

سلمان افندي :

هو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معكوفين ، وحذاء لامع ، يلبس الاجربة الحريرية ، ويدخن اللفائف الثمينة ، ويحمل بيده الناعمة عصا جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويأكل في المطاعم الكبيرة حيث يلتئم سراة القوم واشرافهم، ويذهب الى المتنزهات المشهورة في مركبة فاخرة يجرها فرسان كريمان .

ولم يرث سلمان افندي المال عن أبيه لان أباه رحمه الله كان رجلاً فقيراً مسكيناً ، ولا جدّ متاجراً فاكتسب ثروة لأنه كسلان متوانٍ يكره العمل ويظنه محطاً بمقامه ، وقد سمعناه مرّةً يقول : ان جسدي وأخلاقي لا تساعدني على الشغل ، فالشغل قد وجد لذوي الاخلاق الباردة والأجساد الخشنة .

اذاً كيف حصل سلمان افندي على المال، وأيُّ ساحر حوّل التراب في كفيه الى فضة وذهب ؟

ذاك سرّ من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا عزرائيل ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة أعوام تزوج سلمان افندي من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذي اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة . وقد كانت السيدة فهيمة حينئذ في الخامسة والأربعين من عمرها وفي السادسة عشرة من سني عواطفها وميولها وهي الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلي وجهها بالألوان والمساحيق ولكنها لا ترى سلمان أفندي قبل نصف الليل وقلما حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية ، فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التي جمعها زوجها الأول بكده وعرق جبينه .



اديب أفندي :

فتىً في السابعة والعشرين من عمره ، ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قذر ويدين ملطختين بالحبر وأظافر محشوة بالأوساخ . أما ملابسه فممزقة الأطراف وعلى حواشيها بقع من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات اهماله وانشغال باله بالأمور المعنوية والمسائل العلوية والمواضيع الالهية ... وقد سمعناه يقول مستشهداً بامين الجندي : ان

القريحة لا تنصرف الى شيئين . اي أن الأديب لا يستطيع ان يميل الى صناعة القلم والى النظافة في وقت واحد .

اديب افندي يتكلم كثيراً ويتكلم دائماً ، فهو منصرف عن كل شيء الى الكلام ، وقد علمنا انه صرف عامين في إحدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على احد الاساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ الرسائل والمقالات ولكنه للآن لم ينشر منها شيئاً لاسباب كثيرة اهمها انحطاط الصحافة العربية وغباوة القراء !

وقد انصرف اديب افندي في الآونة الأخيرة الى خفايا الفلسفة القديمة والحديثة ، فهو معجب بسقراط ونيتشه في وقت واحد ! ويميل الى أقوال القديس اغسطينس ميله الى كتابات فولتر وجان جاك روسو . وقد لقيناه مرة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير ! ورأيناه مرّة أخرى سائراً في جنازة وجيه والمشيعون يمشون الى جانبه برؤوس منخفضة وملامح مكتئبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبي نواس وغزليات ابن الفارض !

لماذا يا ترى يعيش اديب افندي وما الغرض من صرفه الأيام والليالي بين الكتب القديمة والاوراق البالية ؟ ولماذا لا يقتني حماراً ويصير في عداد المكارين الأقوياء النافعين ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا بعلزبول ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم اديب افندي قصيدة في مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وانشدها امامه في دار حبيب بك سلوان ، ولما فرغ من تنغيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسماً : عافاك الله يا ابني ، فما ابلغك شاعراً وما اذكاك اديباً ! فأنا أفتخر بامثالك ولا أشك بانك ستكون من رجال الشرق الكبار .

ومن تلك الساعة الى الآن ووالد اديب أفندي وعمه وخاله ينظرون اليه معجبين ويتحدثون عنه مفاخرين قائلين :

– اولَم يقل المطران يوحنا شمعون انه سيكون من رجال الشرق العظام ؟

٣

فريد بك دعيبس :

هو رجل يناهز الأربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ، كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يمشي متثاقلاً بصدر منتفخ وعنق مستطيل ولخطواته وزن خاص يضارع بخترة جمل يقلّ هودجاً . وعندما يتكلم بصوته الجهوري وأسلوبه الفخم تخاله ان لم تكن تعرفه احد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمين بتكييف امور العباد .

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس في صدور المحافل وتعداد مآتي أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم . وهو مغرم بسرد اخبار

الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار كنابليون وعنترة العبسي ، وله ولع خاص بالاسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلقة بترتيب على جدران منزله ولكنه لا يحسن استعمالها !

ومن أقواله المأثورة : ان الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها للرئاسة ومنها للخدمة . ومنها : انما الشعب حمار حرون لا يسير الا اذا علوت ظهره . ومنها : القلم للضعفاء اما السيف فللأشداء ...

وما هي الأسباب التي تجعل فريد بك يتمجد متغطرساً ويتجبر متعجرفاً ويزهو مختالاً متبذخاً متبجحاً ؟

ذاك سر من اسرار السرجين المفضض أبانه لنا سطانائيل ونحن بدورنا نبينه لكم :

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بينما كان الامير بشير الشهابي سائراً بكوكبة من رجاله بين اودية لبنان مرّ بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعيبس جد فريد بك دعيبس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترجل الامير قائلاً لرجاله : تعالوا نرتاح في ظلال تلك السنديانة .

وعلم منصور دعيبس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين وأخبرهم بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم ، فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين اطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعيبس وقبّل أطراف أذيال الأمير ثم نحر كبشاً أمامه وهتف قائلاً : هذا من خير أميرنا وولي نعمتنا .

فسر الامير بأريحيته وخلع عليه قائلا : ستكون منذ الآن وصاعداً شيخاً على هذه القرية مشمولاً بنظري الخصوصي . وقد أعفيت سكان قريتك من الأموال الأميرية في هذه السنة .

وفي تلك الليلة بعد ان تابع الأمير مسيره اجتمع في بيت «الشيخ» منصور دعيبس جميع سكان القرية ونادوا به رئيساً مطاعاً في السراء والضراء — رحمهم الله جميعاً .

*

وللسرجين المفضض أسرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين والأبالسة في كل يوم وليلة وسوف نظهرها لكم قبل ان يسيرنا الدهر الى ما وراء الشفق الأزرق . أما الآن وقد انتصف الليل وملت اجفاننا السهر فاسمحوا لنا ان ننام لعلّ عروس الاحلام تحمل روحنا الى عالم أنظف من هذا العالم .

رؤيا

عندما جنّ الليل والقى الكرى رداءه على وجه الارض تركت مضجعي وسرت نحو البحر قائلاً في نفسي : البحر لا ينام . وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام .

بلغت الشاطىء وكان الضباب قد انحدر من اعالي الجبال وغمر تلك النواحي مثلما يوشي النقاب الرمادي وجه الصبية الحسناء . فوقفت محدقاً الى جيوش الامواج مصغياً الى تهاليلها ، مفكراً بالقوى السرمدية الكامنة وراءها ، تلك القوى التي تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثغور الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيهة التفتُ فاذا بثلاثة اشباح جالسين على صخرٍ قريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ، فمشيت نحوهم ببطء كأن في كيانهم جاذباً يستميلني قسر ارادتي .

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن في المكان سحراً أجمد ما بي من العزم وأيقظ ما في روحي من الخيال .

في تلك الدقيقة وقف احد الاشباح الثلاثة ، وبصوت خلته آتياً من اعماق البحر قال :

— الحياة بغير الحب كشجرة بغير ازهار ولا اثمار . والحب بغير

الجمال كأزهار بغير عطر ، واثمار بغير بذور . . . الحيـــاة والحب والجمال – ثلاثة اقانيم في ذات واحدة مستقلة مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال . قال هذا وجلس في مكانه .

ثم انتصب الشبح الثاني ، وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال :

– الحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع . والتمرد بغير حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء . . . الحياة والتمرد والحق – ثلاثة اقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير .

ثم انتصب الشبح الثالث ، وبصوت كقصف الرعد قال :

– الحياة بغـير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغـير الفكر كالروح المشوشة ... الحيـاة والحرية والفكر – ثلاثة اقانيم في ذات واحدة ازلية لا تزول ولا تضمحل .

ثم وقف الاشباح الثلاثة ، وباصوات هائلة قالوا معاً :

– الحب وما يولده . والتمرد وما يوجده . والحرية وما تنميه – ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل .

وحدث اذ ذاك سكوت مفعم بخفيف اجنحة غير منظورة وارتعاش اجسام اثيرية . فاغمضت عينيّ مصغياً الى صدى الاقوال التي سمعتها . ولما فتحتهما ونظرت ثانية لم أرَ غير البحر متشحاً بدثار الضباب، فاقتربت من الصخرة حيث كان الاشباح الثلاثة جالسين فلم أرَ الا عموداً من البخور متصاعداً نحو السماء .

في ظلام الليل

كتبت ايام المجاعة

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضاً .

في ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب في وسطنا . واجنحته السوداء تخيم علينا . ويده الهائلة تجرف الى الهاوية ارواحنا . اما عيناه الملتهبتان فمحدقتان الى الشفق البعيد .

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتحبين وليس بيننا من يستطيع الوقوف وليس فينا من له أمل بالوقوف .

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه ، وكلما التفت الموت الى الوراء يسقط منا الف الى جانبي الطريق ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ومن لا يسقط يسير قسر ارادته عالماً بأنه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا . اما الموت فيظل سائراً محدقاً الى الشفق البعيد .

في ظلام الليل ينادي الأخ اخاه والاب ابناءه والأم اطفالها وكلنا جائعون لاغبون متضورون . اما الموت فلا يجوع ولا يعطش ، فهو يلتهم ارواحنا واجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوي .

في الهزيع الاول من الليل ينادي الطفل امه قائلاً : يا اماه انا جائع . فتجيبه الأم قائلة : اصبر قليلاً يا ولداه .

وفي الهزيع الثاني ينادي الطفل امه ثانية قائلاً : يا اماه انا جائع فأعطيني خبزاً . فتجيبه : ليس لديّ خبز يا ولداه .

وفي الهزيع الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق ، اما الموت فيظل سائراً محدقاً الى الشفق البعيد .

في الصباح يذهب الرجل الى الحقول طالباً القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهيرة يعود الى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين .

وعندما يجيء المساء يمر الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثم يسير محدقاً الى الشفق البعيد .

في الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب الى المدينة وفي جيبه حلى امه واختيه ليبتاع بها الدقيق . وعند العصر يعود الى قريته بلا قوت ولا حلى فيجد امه وابنتيها راقدات اما عيونهن فلم تزل شاخصة الى اللاشيء ، فيرفع ذراعيه نحو السماء ثم يهبط الى الحضيض كطائر رماه الصياد . وفي المساء يمر الموت بقرب الفلاح وامه واختيه فيجدهم راقدين فيبتسم ثم يسير محدقاً الى الشفق البعيد .

في ظلام الليل ، وليس لظلام الليل نهاية ، نناديكم ايها السائرون في نور النهار فهل انتم سامعون صراخنا ؟

قد بعثنا اليكم ارواح امواتنا رسلاً فهل وعيتم ما قاله الرسل ؟

وحمّلنا الهواء الشرقي من انفاسنا حملاً فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة والقى بين ايديكم احماله الثقيلة ؟ هل عرفتم ما بنا فقمتم تسعون لانقاذنا ام وجدتم نفوسكم في سلامة وطمأنينة فقلتم : ماذا عسى يستطيع

الجالسون في النور ان يفعلوا لأبنـاء الظلام ؟ فلندع الموتى يدفنون امواتهم ولتكن مشيئة الله .

اي ، لتكن مشيئة الله .

ولكن هلا تستطيعون ان ترفعـوا نفوسكم الى مـا فوق نفوسكم ليصيّركم الله مشيئة له وعوناً لنا ؟

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضاً .

في ظلام الليل ينادي الأخ اخاه والأم ابنها والزوج زوجته والمحب حبيبته . وعندما تتمازج اصواتنا وتتعـالى الى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكاً منا مستهزئاً بنا ثم يسير محدقاً الى الشفق البعيد .

الاضراس المسوسة

كان في فمي ضرس مسوّس ، وكان يحتـال على تعذيبي فيسكن متربصاً ساعات النهار ويستيقظ مضطرباً في هدوء الليل عندما يكون اطباء الاسنان نائمين والصيدلية مقفلة .

ففي يوم وقد نفد صبري ذهبت الى احد الاطبـاء وقلت له : الا فانزعه ضرساً خبيثاً يحرمني لذة الرقاد ويحوّل سكينة لياليّ الى الانين والضجيج .

فهزّ الطبيب رأسه قائلاً : من الغباوة ان نستأصل الضرس اذا كان بامكاننا تطبيبه .

ثم اخـذ يحفر جوانب الضرس وينظف زواياه ويتفنن بتطهيره من العلة . ولما وثق بأنه صار خالياً من السوس حشا ثقوبه بالذهب الخالص ثم قال مفاخراً : لقد اصبح ضرسك العليل أشد واصلب من اضراسك الصحيحة . فصدقت كلامه وملأت حفنته بالدنانير وذهبت فرحاً .

ولكن لم يمر الاسبوع حتى عاد الضرس المشؤوم الى تعذيبي وإبدال انغام روحي بحشرجة الاحتضار وعويل الهاوية .

فذهبت الى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم : ألا فاخلعه ضرساً مذهباً شريراً ، ولا تعترض « فمن يأكل العصي لا كمن يعدها » .

فنزع الطبيب الضرس وكانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنها كانت ساعة مباركة .

وقد قال لي الطبيب بعد ان استأصل الضرس وتفحّصه جيداً : لقد فعلت حسناً ، فالعلة قد تحكمت بأصول ضرسك هذا حتى لم يبقَ رجاء بشفائه .

وقد نمت مرتاحاً في تلك الليلة ، ولم أزل في راحة ، والحمد للخلع والاستئصال .

*

في فم الجامعة البشرية اضراس مسوسة وقد نخرتها العلة حتى بلغت عظم الفك ، غير ان الجامعة البشرية لا تستأصلها لترتاح من اوجاعها بل تكتفي بتمريضها وتنظيف خارجها وملء ثقوبها بالذهب اللماع .

وما أكثر الاطباء الذين يداوون اضراس الانسانية بالطلاء الجميل والمواد البرّاقة . وما اكثر المرضى الذين يستسلمون الى مشيئة اولئك الاطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثم يموتون بعلتهم مخدوعين .

غير ان الامة التي تعتل ثم تموت لا تُبعث ثانية لتظهر للملأ اسباب الامراض المعنوية وماهية الادواء الاجتماعية التي تؤول بالأمم الى الانقراض والعدم .

*

وفي فم الامـة السورية اضراس بالية سوداء قـذرة ذات رائحـة كريهة وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء وإلبـاس خارجها رقوق الذهب ولكنهـا لا تشفى ولن تشفى بغير الاستئصال . والأمة التي تكون اضراسها معتلة تكون معدتها ضعيفة ، وكم امة ذهبت شهيدة عسر الهضم .

ومن شاء ان يرى اضراس سوريا المسوسة فليذهب الى المدرسة حيث يستظهر رجال الغد ما قاله الأخفش نقلاً عن سيبويه وسيبويه عن سائق الاظعان .

او فليذهب الى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البهلواني بالقضـايا الشرعية مثلما تلعب القطة بصيدتها .

او فليذهب الى منازل المثرين حيث التصنع والكذب والرياء .

او فليذهب الى بيوت الفقراء حيث الخوف والجبانة والجهالة .

وبعد ذلك فليذهب الى اطبـــاء الاسنان ذوي الاصابع الناعمـة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدرة الذين يصرفون الايام بملء ثقوب الاضراس المسوسة وتطهير زواياها المعتلة ، واذا اراد محادثتهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون في النوادي والساحات ، ففي حديثهم نغمة اسمى من اناشيد حجر الرحى وانبل من اغاني الضفادع في ليالي تموز .

ولكن اذا قال لهم ان الامة السورية تقضم قوت الحياة بأضراس مسوسة وان كل لقمة تلوكها تمتزج بلعاب مسمم وانه قد نتج عن ذلك

مرض في امعائها ، اذا قال هـــذا يجيبونه بقولهم : نعم نحن الآن منصرفون الى درس احدث المساحيق وأجد المخدرات .

واذا قال لهم : ما قولكم بالاستئصال ؟ يضحكون منه لانـه لم يدرس طب الاسنان الشريف .

واذا اعاد السؤال ثانية يبتعدون عنه متضجرين قائلين في نفوسهم : ما أكثر الخياليين في هذا العالم وما أوهى احلامهم !

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام المدينة فشعشعت الأنوار في القصور والمنازل وخرج الناس الى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء البشر والاستكفاء ومن بين دقائق لهاثهم تنبعث رائحة المآكل والخمور . . .

أما انا فسرت وحيداً منفرداً مبتعداً عن الزحام والضجيج أفكر بصاحب العيد .

أفكر بنابغة الأجيال الذي ولد فقيراً وعاش متجرداً ومات مصلوباً . . .

افكر بالشعلة النارية التي أوقدها الروح الكلي في قرية حقيرة بسوريا فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنية بعد مدنية . . .

ولما بلغت الحديقة العمومية جلست على مقعد خشبي أنظر من خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدحمة وأسمع عن بعد أناشيد المعيّدين السائرين في موكب اللهو والحلو . . .

وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفتُّ وإذا برجل جالس بقربي على المقعد وفي يده عصا يرسم بطرفها خطوطاً ملتبسة على التراب . . .

فقلت في نفسي : هو مستوحد مثلي . ثم تفرّست فيه متبصراً شكله فالفيته رغم أثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوّش ذا هيبة ووقار .. وكأنه قد شعر بأنني انظر اليه متفحصاً شكله وملامحه فالتفت نحوي وقال بصوت عميق هادىء : مساء الخير . فأرجعت التحية قائلاً : أسعد الله مساءك .

ثم عاد يرسم الخطوط بعكازه على أديم الأرض . وبعد هنيهة وقد أعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلاً : هل انت غريب في هذه المدينة ؟

فأجاب : انا غريب في هذه المدينة وانا غريب في كل مدينة أخرى .

قلت : ان الغريب في مثل هذه المواسم يتناسى ما في الغربة من الضيم والوحشة لما يجده في الناس من الأنس والانعطاف .

فاجاب : انا غريب في مثل هذه الأيام أكثر مني في غيرها .

قال هذا ونظر الى الفضاء الرمادي فاتسعت عيناه وارتعشت شفتاه كأنه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطن بعيد ...

قلت : ان القوم في هذه المواسم يعطف بعضهم على بعض ، فالغني يذكر الفقير والقوي يرحم الضعيف .

فأجاب : نعم ، وما رحمة الغني بالفقير سوى نوع من حب الذات ، وليس انعطاف القوي على الضعيف إلا شكلاً من التفوّق والافتخار .

قلت : قد تكون مصيباً ولكن ماذا يهم الفقير الضعيف ما يجول في باطن الغني القوي من الرغائب والميول ؟ ان الجائع المسكين يحلم بالخبز ولكنه لا يفكر في الكيفية التي يعجن بها الخبز .

فاجـاب : ان الموهوب لا يفكر امـا الواهب فيجب عليـه ان يفكر ويفكر طويلاً .

فأعجبت بكلامه وعدت اتأمل منظره الغريب وأثوابه القديمة . . .

وبعد سكينة نظرت اليه قائلاً : يلوح لي انك في حاجة ، فهلا قبلت درهماً او درهمين ؟

فاجاب وقـد ظهرت على شفتيه ابتسامة محزنـة : نعم انا بحاجـة ولكن الى غير المال .

قلت : وماذا تحتاج ؟

فقال : انا بحاجة الى مأوى ... انا بحاجة الى مكان اسند اليه رأسي .

قلت : خذ مني درهمين واذهب الى النزل واستأجر غرفة .

فاجاب : قد ذهبت الى كل نزل في هذه المدينة فلم اجد لي مأوى ، وطرقت كل باب فلم أرَ لي صديقاً ، ودخلت كل مطعم فلم أعطَ خبزاً .

فقلت في نفسي : مـا أغربه فتى يتكـلم تارة كالفيلسوف وطوراً كالمجنون !

ولكن لم أهمس لفظـة « مجنون » في أذن روحي حتى حـدق اليّ شاخصاً ورفع صوته عن ذي قبل وقال : نعم انا مجنون ، ومن كان مثلي يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً بلا طعام .

قلت مستدركاً مستغفراً : سامح ظنوني فأنا لا أعرف من أنت وقد استغربت كلامك فهلا قبلت دعوتي وذهبت معي لتصرف الليلة في منزلي؟

فاجاب : قد طرقت بابك الف مرّة ولم يفتح لي .

قلت وقد تحققت جنونه : تعال الآن واصرف الليلة في منزلي .

فرفع رأسه وقال : لو عرفت من انا لما دعوتني .

قلت : ومن انت ؟

قال وفي صوته هدير مياه غزيرة : انا الثورة التي تقيم ما أقعدته الأمم . انا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التي انبتتها الأجيال . انا الذي جاء ليلقي في الارض سيفاً لا سلاماً .

ووقف منتصباً وتعالت قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر أثر المسامير في كفيه ، فارتميت راكعاً أمامه وصرخت قائلاً : يا يسوع الناصري ...

وسمعته يقول اذ ذاك : العالم يعيّد لاسمي وللتقاليد التي حاكتها الأيام حول اسمي . اما انا فغريب اطوف تائهاً في مغارب الارض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتي .

للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وليس لابن الانسان ان يسند رأسه .

ورفعت رأسي اذ ذاك ونظرت فلم أرَ أمامي سوى عمود من البخور ولم أسمع سوى صوت الليل آتياً من اعماق الابدية .

الجبابرة

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب .

وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجده الألم .

أما انا فقد سكتُّ لان آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء وانينهم الى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة ان يسكت الضعيف عندما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود — تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل الفاظاً .

نحن الآن في زمن أصغر صغائره اكبر من كبائر ما تقدمه . فالأمور التي كانت تشغل أفكارنا وميولنا وعواطفنا قد انزوت في الظل . والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من الاهمال . اما الاحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت تميس متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحلَّ محلها جبابرة تسير كالعواصف ، وتتمايل كالبحار ، وتتنفس كالبراكين .

وما عسى ان يصير اليه العالم بعد ان تنتهي الجبابرة من صراعها ؟

هل يعود القروي الى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى ؟

هل يقود الراعي مواشيه الى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد الشاعر قصائده امام كواكب حجبت بالدخان ، وينغم المنشد اغانيه في ليل عانقت سكينته الاهوال ؟

هل تجلس الام بجانب سرير رضيعها مرتلة بهدوء اغاني النوم وهي لا ترتجف وجلاً بما سيجلبه الغد ؟

هل يلتقي الحبيب بحبيبته ويتبادلان القبل حيث التقى العدو بعدوه وتبادلا القذائف ؟

وهل يعود نيسان الى الارض ويستر بقميصه اعضاءها المكلومة ؟

ليت شعري ، هل يعود نيسان الى الحقول ؟

*

وما عسى تصير اليه بلادكم وبلادي ؟ وأيٌّ من الجبابرة يضع يده على تلك التلال والهضبات التي أنبتتنا وصيرتنا رجالاً ونساء امام وجه الشمس ؟

هل تبقى سوريا مطروحة بين مغاور الذئاب وحظائر الخنازير ، أم تنتقل مع العاصفة الى عرين الأسد او ذروة النسر ؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟

كلما خلوتُ بنفسي اطرح عليها هذه السؤالات ، غير ان النفس كالقضاء تبصر ولا تتكلم ، وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهي ذات عيون تتجلى واقدام تتسارع ، اما لسانها فثقيل .

ومن منكم ايها الناس لم يسأل نفسه في كل يوم وليلة عن مصير الارض وسكانها بعد ان تختمر الجبابرة من دموع الأرامل والأيتام ؟

انا من القائلين بسنّة النشوء والارتقاء ، وفي عرفي ان هذه السنّة تتناول بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن الى الأحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب الى الأنسب . فلا رجوع الى الوراء الا في الظاهر ولا انحطاط الا في السطحي .

ولسنّة الارتقاء سبل متشعبة يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة الاصول ، ومظاهر قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الافكار المحدودة وتتمرد عليها القلوب الضعيفة ، اما خفاياها فعادلة منيرة ، متمسكة بحق اسمى من حقوق الافراد، محدقة الى غرض أعلى من مرام الجماعة ، مصغية الى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصّات المتوجعين .

حولي بكل مكان اقزام يرون عن بعد اشباح الجبابرة متناضلين ويسمعون في المنام صدى تهاليلهم فيضجون كالضفادع قائلين : قد رجع العالم الى فطرته الوضعية . فما بنته الأجيال بالعلم والفن قد هدمه الانسان الوحشي بالطمع والأنانية ، فحالتنا اليوم حال سكان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحيل نستخدمها للهلاك !

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم ، ويحللون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التي يستخدمونها لحفظ وجودهم

الفردي . فكأن الشمس لم تكن الا لتدفئتهم ، وكأن البحر لم يوجد الا لغسل ارجلهم .

*

من أحشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من أعماق الكون المدبر حيث تصان اسرار الكون المدبر قد انبثقت الجبابرة كالريح وتصاعدوا كالغيوم ثم تلاقوا كالجبال وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة في الارض لا يحلها غير الصراع .

اما البشر وكل ما في رؤوسهم من المدارك والمعارف ، وما في قلوبهم من المحبة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والأوجاع فآلات يتناولها الجبابرة ويديرونها توصلاً الى غاية علوية لا بد من بلوغها .

اما الدماء التي أهرقت فسوف تجري انهاراً كوثرية ، واما الدموع التي نثرت فستنبت ازهاراً زكية ، واما الأرواح التي فاضت فسوف تجتمع وتتألف وتطلع من وراء الافق الجديد صباحاً جديداً فيعلم الناس انهم قد ابتاعوا الحق في سوق البؤس وان من ينفق في سبيل الحق لن يخسر .

واما نيسان فسيعود — لكن من يطلب نيسان من غير كف الشتاء فلن يجده .

مات اهلي

كتبت ايام المجاعة

مات أهلي وانا قيد الحياة اندب اهلي في وحدتي وانفرادي .

مات احبائي وقد اصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم .

مات اهلي واحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي ، وانا ههنا اعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان اهلي واحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس .

مات اهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحد السيف ، وانا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغتبطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الأسرّة الناعمة ويضحكون للأيام والايام تضحك لهم .

مات اهلي أذل ميتة ، وانا ههنا اعيش في رغد وسلام . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي .

لو كنت جائعاً بين اهلي الجائعين مضطهداً بين قومي المضطهدين ، لكانت الايام اخف وطأة على صدري ، والليالي اقل سواداً امام عينيّ . لان من يشارك اهله بالاسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لانه يموت بريئاً مع الابرياء .

ولكنني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل انا هنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة . انا هنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا استطيع ان افتخر بشيء حتى ولا بدموعي .

وماذا عسى يقدر المنفي البعيد ان يفعل لأهله الجائعين ؟

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟

لو كُنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحباتي يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً .

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظل القبر عن جسده .

ولكن ، واحرَّ قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في اودية لبنان . وهذه هي نكبتي . هذه نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً امام نفسي وامام اشباح الليل .

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبّل يديَّ ثم توقفني بلا عزم ، ولا ارادة ، ولا عمل .

*

يقولون لي : ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي أهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء

والدموع المتدفق ليلاً ونهاراً في أودية الارض وسهولها .

نعم ، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء — نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعي والثعابين — نكبة بلادي مأساة بغير اناشيد ولا مشاهد .

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت ان الموت في سبيل الحرية لأشرف من الحياة في ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الابدية والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق .

لو اشتركت امتي بحرب الامم وانقرضت على بكرة ابيها في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، وان الموت تحت اغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة .

ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً وغمر التراب أهلي واحبائي لقلت هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر ، فمن الجهالة ان نحاول ادراك اسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت اهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين .

مات اهلي على الصليب .

ماتوا واكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة الى سواد الفضاء .

ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد اغلقت دون صراخهم .

ماتوا لانهم لم يحبوا اعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين .

ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين .

ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين .

ماتوا لانهم كانوا مسالمين .

ماتوا جوعاً في الارض التي تدر لبناً وعسلاً .

ماتوا لان الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقولهم من المواشي وما في اهرائهم من الاقوات .

ماتوا لان الافاعي ابناء الافاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه انفاس الارز وعطور الورود والياسمين .

*

مات اهلي واهلكم ايها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمت منهم ؟

ان نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم ، اذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟

هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

ان العاطفة التي تجعلك ، يا اخي السوري ، تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل .

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية .

الامم وذواتها

الامة مجموع افراد متبايني الاخلاق والمشارب والآراء تضمهم رابطة معنوية اقوى من الاخلاق واعمق من المشارب واعم من الآراء .

وقد تكون الوحدة الدينية بعض خيوط هذه الرابطة ، غير ان الخلاف في العقيدة لا يحل الروابط الامية الا اذا كانت ضعيفة واهية كما هي في بعض البلاد الشرقية .

وقد تكون وحدة اللغة سبباً اساسياً لايجاد هذه الرابطة ، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلم لغة واحدة مع انها في خلاف مستمر من حيث السياسة والادارة والنظريات الاجتماعية .

وقد تكون الوحدة الدموية اساساً لهذه الرابطة ، ولكن في التاريخ امثلة عديدة نستدل منها على ان افخاذ عنصر واحد انشقت بعضها على بعض وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثم الاضمحلال .

وقد تكون المصلحة المادية نولاً تحاك عليه تلك الرابطة ، ولكن هناك شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة .

اذن ما هي تلك الرابطة الاجتماعية ؟ وما هي التربة التي تنبت فيها انصاب الامم ؟

لي رأي في الرابطة الامية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً لان اصوله ونتائجه ليست من الامور المحسوسة .

اما رأيي فهو هذا :

لكل شعب ذات عامة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد . ومع ان هذه الذات العامة تستمد كيانها من افراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهي مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وارادة منفردة. وكما يصعب عليّ تحديد وتعيين الزمن الذي تتولد فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب عليّ تعيين وتحديد الزمن الذي تتولد فيه الذات العامة . غير انني اشعر ان الذات المصرية – مثلاً – قد تبلورت قبل ظهور الدولة الاولى على ضفاف النيل بزمن لا يقل عن خمسمائة سنة. ومن تلك الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية والاجتماعية. وما اقوله عن مصر يصح في اشور وفارس واليونان ورومة وغيرها من الامم الحديثة ، اعني تلك التي ظهرت بعد انقضاء الاجيال المتوسطة.

قلت ان للذات العامة حياة خاصة . نعم ، ولما كان لكل حي عمر محدود كان لتلك الذات العامة اجل محدود لا تتجاوزه . ومثلما يسير الكيان الفردي من الطفولة الى الشبيبة ، الى الكهولة ، الى الشيخوخة ، هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموشحة بنقاب النوم ، الى يقظة الظهر المتجلبية بنور الشمس ، الى يقظة المساء المتسربلة بلباس التضجر ، الى يقظة الليل المغمورة بالنعاس ، الى سبات عميق .

ان الذات اليونانية قد استيقظت في القرن العاشر قبل المسيح ، ومشت بعزم وجلال في القرن الخامس قبل المسيح . ولما بلغت عهد

الناصري كانت قد ملت احلام اليقظة فنامت على مضجع الابدية لتعانق احلام الابدية .

اما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الاسلام ، ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها . ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها اولها في الهند وآخرها في الاندلس . ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية قد اخذت تنمو وتمتد من الشرق الى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً . وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما بقي خفياً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الايطالية المعروفة بالرنسانس واكملت في البندقية وفلورنسا وميلانو ما ابتدأت به قبل ان تباغتها الشعوب التوتونية في بدء الاجيال المظلمة .

واغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنسية ، فهي قد عاشت ألفي سنة امام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة نضرة . وهي اليوم أدقُّ فكراً وأحدُّ نظراً وأوسع فناً وعلماً مما كانت في اي زمن من تاريخها .

فرودان وكارير وشيتان وهوغو ورينان وساسه وسيموني ، وجميعهم من ابناء القرن التاسع عشر ، كانوا اعظم رجال العالم فناً واكثرهم علماً وابعدهم خيالاً ، الامر الذي يدلنا على ان لبعض الذوات العامة اعماراً اطول من الاخرى . فالذات المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . اما الذات اليونانية فلم تعش اكثر من ألف سنة . وقد تكون

الاسباب في طول آجال الذوات العامة او قصرها شبيهة بأسباب قصر اعمار الافراد او طولها .

وماذا يا ترى يحل بالذات العامة بعد ان تلعب دورها على مسرح الوجود ؟

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها ؟ هل تضمحل امام الايام والليالي كأنها لم تكن مظهراً لليالي والايام ؟

في عقيدتي ان الكيان المعنوي يتغير ولكنه لا ولن يضمحل . فهو كالكيان المادي يتحول من شكل الى شكل ومن صورة الى صورة ، اما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن . فذات الأمة العامة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد ان تلقي بذورها في تربة الارض ، اما عطرها فيتصاعد الى عالم الخلود . وعندي ان العطر في الامة او في الزهرة هو الحقيقة المجردة ، هو الجوهر المطلق . فعطر ثيب وبابل ونينوى واثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الاثيري المحيط بالأرض ، بل هو موجود في اعماق ارواحنا . ونحن ، افراداً وجماعات ، ورثة كل الذوات العامة التي وجدت على سطح الأرض .

غير ان ذلك الارث العلوي لا يتخذ له صوراً محسوسة في الفرد او الجماعات حتى تتبلور الامة التي ينتسب الافراد والجماعات اليها وتصير ذاتاً لها حياة خاصة وارادة منفردة .

فلسفة المنطق

او معرفة الذات

في ليلة من ليالي بيروت الممطرة جلس سليم أفندي دعيبس امام منضدة فوقها أكداس من الكتب العتيقة والاوراق المنثورة يقلب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والاخرى مخرجاً من بين شفتيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفية اوحاها سقراط لتلميذه أفلاطون في « معرفة الذات » .

كان سليم افندي يتبصر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضراً الى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتى لم تبقَ شاردة لمفكر غربي الا لازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقي الا لاحمت ذاكرته ، حتى اذا ما غرقت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض فجأة ومد ذراعيه وصرخ باعلى صوته قائلاً : نعم . نعم . ان معرفة الذات هي أم كل معرفة . اما انا فعليَّ ان أعرف ذاتي . وأعرفها تماماً . واعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها . عليَّ ان أُزيل النقاب عن أسرار نفسي وأمحو الالتباس عن مكامن قلبي . بل عليَّ ان ابين معاني كياني المعنوي لكياني الهيولي، وخفايا وجودي الهيولي لوجودي المعنوي.

قال هذا بحماسة غريبة وفي عينيه تتقد شعلة « محبة المعرفة » ، معرفة الذات ، ثم دخل الى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة

تصل ارض الغرفة بسقفها ونظر محدقاً الى شبحه متفرساً في وجهه متأملاً بشكل رأسه وخطوط قامته واجمال هيأته .

ظلّ واقفاً جامداً على هذه الحالة نصف ساعة كأن الفكرة الازلية قد انزلت عليه أفكاراً هائلة بسموها تجعله بواسطتها يكتشف بواطن روحه ويملأ بالنور خلايا ذاته . ثم فتح شفتيه بهدوء وقال مخاطباً نفسه :

انا قصير القامة وهكذا كان نابوليون وفكتور هوغو .

انا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسبينوزا .

انا أصلع وهكذا كان شكسبير .

انفي كبير ومنحنٍ الى جهة واحدة وهكذا كان سفنرولا وفولتير وجورج واشنطن .

في عينيَّ سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيتشه .

فمي غليظ وشفتي السفلى ناتئة وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر .

عنقي غليظ وهكذا كان هنيبال ومرقس انطونيوس .

أذناي مستطيلتان بارزتان الى الجهة الوحشية وهكذا كان برونو وسرفانتي .

وجنتاي بارزتان وخدّاي ضامران وهكذا كان لافيات ولنكن .

ذقني متقاهر الى الوراء وهكذا كان غولد سمث ووليم بت .

كتفاي متباينتان فالواحدة تعلو على الأخرى وهكذا كان غمبتا واديب اسحق .

يداي ثخينتا الكفين قصيرتا الأصابع وهكذا كان بليك وادنتون .

وبالاجمال جسدي ضعيف نحيل وهـذا شأن اكثر المفكرين الذين تتعب اجسادهم في مرامي نفوسهم ، ومن الغريب اني لا استطيع الجلوس كاتباً او مطالعاً الا وبجانبي ابريق القهوة مثلما كان يفعل بلزاك . وفوق ذلك فلي ميـل الى معاشرة الرعـاع والبسطاء كتولستوي ومكسيم غوركي . وقـد يمر اليوم واليومان بـدون ان اغسل وجهي ويـدي وهكذا كان بيتوفن وولت وتمن . وللعجب انني استريح لسماع اخبار النساء وما يفعلنه في غياب ازواجهن كبوكاشيو وربيالي . اما عطشي الى الخمرة فيضـارع عطش نوح وأبي نواس ودي موسه ومارلو . واما مجاعتي للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالألوان المتنوعـة فتقارن نهم بطرس الاكبر والأمير بشير الشهابي .

ووقف سليم افندي دقيقة عن مخاطبة نفسه ثم لمس جبهته باطراف بنانه وزاد قائلا : « هذا انا . هذه هي حقيقتي . فانا مجموع صفات كان حائزاً عليها أعاظم الرجال من بدء التاريخ الى يومنا هذا . وفتى جامع لهذه المزايا لا بد ان يفعل شيئاً عظيماً في هذا العالم .

« رأس الحكمة معرفة الذات. وانا قد عرفت نفسي في هذه الليلة ومنذ الليلة سأبتدىء بالعمل العظيم الذي انتدبتني اليه فكرة هذا العالم بوضعها في اعماقي عناصر متعددة متباينة . رافقت عظماء البشر من نوح الى سقراط الى بوكاشيو الى احمد فارس الشدياق . انا لا أدري ما هو العمل العظيم الذي سأقوم به ولكن رجلاً جمع في شخصه الهيولي وذاته المعنوية ما انا جامع لهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالي .. لقد

عرفت نفسي ، نعم والآلهة قد عرفت نفسي ، فلتحي نفسي ولتعش ذاتي وليبقَ الكون كوناً حتى تتم اعمالي . »

ومشى سليم افندي في تلك الغرفـة ذهاباً واياباً وسيماء البشر في سحنته القبيحة وهو يردد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط بقلقلة العظام بيت أبي العلاء القائل :

واني وان كنت الأخير زمانه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وبعد ساعة كان صاحبنا مضطجعاً بملابسه المشوشة على سريره المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحي بنغمة أدنى الى جعجعة الطاحون منها الى صوت ابن آدم .

العاصفة

١

كان يوسف الفخري في الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادي قاديشا في شمال لبنان .

وقد اختلف سكان القرى المجاورة في أمره ، فمنهم من قال : هو ابن اسرة شريفة مثرية وقد أحب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلاً الى السلوان . ومنهم من قال : هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدوّن أفكاره وينظم عواطفه . ومنهم من قال : هو متصوّف متعبّد قد اقتنع بالدين دون الدنيا . ومنهم من اكتفى بقوله : هو مجنون .

اما انا فلم اكن من رأي هذا ولا ذاك لعلمي ان في داخل الارواح اسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين ، غير انني كنت اتمنى لقاء هذا الرجل الغريب واشتهي محادثته . وقد حاولت مرتين التقرب اليه لأستطلع حقيقته واستفسر مقاصده وامانيه ، فلم اظفر منه بسوى نظرات حادة وبعض ألفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع . ففي المرة الاولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الارز ،

حييته بأحسن ما حضرني من الكلام فلم يردّ التحية الا بهز رأسه ثم تحوّل عني مسرعاً . وفي المرة الثانية وجدته واقفاً في وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلاً : قد سمعت بالأمس ان هذه الصومعة بناها ناسك سرياني في القرن الرابع عشر فهل لك علم بذلك يا سيدي ؟

فاجاب بلهجة خشنة : لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا اريد ان اعلم . ثم ادار لي ظهره وزاد ساخراً : لماذا لا تسأل جدتك فهي اقدم عهداً واكثر علماً بتاريخ هذه الاودية . فتركته مكسوفاً نادماً على تطفلي .

وهكذا مرّ عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالاسرار تراود خيالي وتتايل مع افكاري واحلامي .

٢

ففي يوم من ايام الخريف وقد كنت متجولاً بين تلك التلول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف الفخري فاجأتني العاصفة بأهويتها وامطارها واخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسّرت الامواج دفته ومزّقت الريح شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلاً في نفسي : هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك وستكون العاصفة عذري واثوابي المبللة شفيعي .

بلغت الصومعة وانا في حالة يرثى لها ، ولم اطرق الباب حتى ظهر امامي الرجل الذي طالما تشوقت الى لقائه حاملاً بيده طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنه على آخر رمق من الحياة . فقلت بعد ان حييته : اعذرني يا سيدي على مجيئي اليك في هذه الحالة، ولكن العاصفة شديدة وانا بعيد عن المنزل .

فتفرّس فيَّ عابساً وأجاب بصوت يساوره الاستنكاف : الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بإمكانك الالتجاء اليها .

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أرَ مثله في حياتي، فعجبت لمرأى الضدّين : الرأفة والخشونة في وقت واحد ، وتحيرت في أمري . وكأنه قد علم بما يخالج ضميري فنظر اليَّ نظرة استيضاح واستعلام ثم قال : ان العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة فلِمَ تخافها وتهرب منها ؟

فأجبته : العاصفة لا تحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل الى الرطب البارد ولا أشك بأنها ستجدني لقمة لذيذة اذا قبضت عليَّ ثانية.

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلاً : لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف لا تستحقه .

فأجبته : نعم يا سيدي ، ولقد جئت اليك هارباً من العاصفة لكي لا انال ذلك الشرف الذي لا استحقه !

فحوّل وجهه محاولاً اخفاء ابتسامة ضئيلة ، ثم اشار نحو مقعد خشبي بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال : اجلس وجفف اثوابك .

فجلست بقرب النار شاكراً وجلس هو قبالتي على مقعد محفور في الصخر واخذ يغمس اطراف اصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخارية ويدهن بها جناح الطائر ورأسه المجروح . ثم التفت نحوي قائلاً : قد دفعت الريح هذا الشحرور فهبط على الصخور بين حي وميت .

فقلت : والريح قد حملتني ايضاً الى بابك يا سيدي وانا للآن لا ادري ما اذا كانت قد كسرت جناحي او هشمت رأسي .

فنظر الى وجهي بشيء من الاهتمام وقال : حبذا لو كان للانسان بعض طباع الطيور . حبذا لو كسرت العواصف اجنحة البشر وهشمت رؤوسهم . ولكن الانسان مطبوع على الخوف والجبانة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبىء في شقوق الأرض ومغاورها .

فقلت وقصدي متابعة الحديث : نعم ان للطير شرفاً ليس للانسان. فالانسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه ، اما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير بالارض حول الشمس.

فلمعت عيناه وانبسطت ملامحه كأنه وجد بي تلميذاً سريع الفهم . ثم قال : احسنت ، احسنت ، فاذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش كالطيور في مكان بعيد خالٍ إلا من ناموس الارض والسماء .

فقلت : اني اعتقد بما اقول يا سيدي .

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب : الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر اما حياتهم فشبيهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال اما نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف .

قال هـذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قـام من مـكانه ومدّد الشحرور على جبة قديمـة بقرب النافذة . ثم تنـاول رزمة من القضبان اليابسة والقـاها في الموقد قائـلاً : اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة أضر بالانسان من كل شيء آخر . جفف اثوابك جيداً ولا تكن خجولاً .

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من اثوابي الرطبـة . امـا هو فوقف في باب الصومعة محدقاً الى الفضاء الغضوب .

وبعد هنيهة سألته قائلاً : هل جئت الى هذه الصومعة منذ زمن بعيد ؟

فأجاب دون ان يلتفت نحوي : جئت الى هـذه الصومعة عندمـا كانت الارض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمـة وروح الله يرف على وجه المياه .

فسكَتُّ قائلاً في سري : ما اغرب هذا الرجل وما اصعب السبيل الى حقيقته . ولكن لا بد من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف اصبر حتى يتحول شموخه الى اللين والدعة .



وغمر الليل تلك البطاح بردائه الاسود ونمت العـاصفة وغزرت الامطار حتى خُيل لي ان الطوفان قـد جاء ثانيـة ليبيد الحياة ويطهّر الارض من ادرانها . وكأن ثورة العناصر قـد ولدت في نفس يوسف

الفخري تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الاحايين مظهراً لرد الفعل. فتحول نفوره مني الى الاستئناس بي ، فقام واشعل شمعتين ثم وضع امامي جرّة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الاثمار المجففة ، ثم جلس قبالتي وقال بلطف : هذا كل ما عندي من الزاد فتفضل يا اخي وشاركني به .

تناولنا العشاء صامتين صاغيين الى ولولة الريح وبكاء الامطار . غير انني كنت ابتصر وجهه بين اللقمة والاخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه .

وبعد ان رفع المائدة تناول من جانب الموقد ابريقاً نحاسياً وصب منه قهوة صافية زكية الرائحة في فنجانين ثم فتح علبة مفعمة بلفائف التبغ ، وقال بهدوء : تفضل يا اخي .

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وانا لا اصدق ما تراه عيناي ، فنظر اليّ وكأنه قد سمعني مفكراً فابتسم هازّاً رأسه ثم قال بعد ان اشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة : انت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة ، وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وانا لا الومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون ان البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة .

فأجبته : نعم يا سيدي ، فقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما في العالم من الملذات والمسرات ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والاعشاب .

فقال : لقد كان بامكاني عبادة الله وانا بين خلقه ، لان العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد . وانا لم اترك العالم لأجد الله لانني كنت اجده في بيت ابي وفي كل مكان آخر ، ولكنني هجرت الناس لان اخلاقي لا تنطبق على اخلاقهم ، واحلامي لا تتفق مع احلامهم . تركت البشر لانني وجدت نفسي دولاباً يدور يمنة بين دواليب تدور يساراً . تركت المدينة لانني وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقها في ظلمة الارض واغصانها تتعالى الى ما وراء الغيوم ، اما ازاهرها فمطامع وشرور وجرائم ، واما اثمارها فويل وشقاء وهموم . ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا ، بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على امرهم .

واتكأ اذ ذاك الى جانب الموقد ، وكأنه قد وجد لذة في تأثير كلامه فيّ فرفع صوته اكثر من ذي قبل وزاد قائلاً : لا ، لم اطلب الوحدة للصلاة والتنسك ، لان الصلاة ، وهي اغنية القلب ، تبلغ آذان الله وان تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف ، واما التنسك ، وهو قهر الجسد واماتة رغائبه ، فمسألة لا مكان لها في ديني ، لان الله بنى الاجسام هياكل للأرواح وعلينا ان نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالألوهية التي تحل فيها . لا يا اخي لم اطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طلبتها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وافكارهم وضجتهم وعويلهم . طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً . طلبت الانفراد لكي لا ألتقي النساء اللواتي يسرن

ممدودات الاعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن ألف ابتسامة وفي اعماق قلوبهن غرض واحد . طلبت الانفراد لكي لا اجالس ذوي نصف المعرفة الذين يبصرون في المنام خيال العلم فيتخيلون انهم اصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة . ويرون في اليقظة احد اشباح الحقيقة فيتوهمون انهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لانني مللت مجاملة الخشن الذي يظن اللطف ضرباً من الضعف ، والتساهل نوعاً من الجبانة ، والترفع شكلاً من الكبرياء . طلبت الخلوة لان نفسي تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون ان الشموس والاقمار والكواكب لا تطلع الا من خزائنهم ولا تغيب الا في جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأماني الامم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الألفاظ ، ومن الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم ... طلبت الوحدة والانفراد لانني لم احصل على شيء من يد بشري الا بعد ان دفعت ثمنه من قلبي . طلبت الوحدة والانفراد لانني سئمت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة ، ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية . طلبت الوحدة لان في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية لان فيها نور الشمس ورائحة الازهار وانغام السواقي . طلبت الجبال لان فيها يقظة الربيع واشواق الصيف واغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت الى هذه الصومعة المنفردة لانني اريد معرفة اسرار الارض والدنو من عرش الله .

وسكت متنفساً الصعداء كأنه ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقه وقد تلمعت عيناه بأشعة غريبة سحرية وظهرت على وجهه امارات الانفة والارادة والقوة .

ومرت بضع دقائق وانا انظر اليه مسروراً بظهور ما كان محجوباً عني . ثم خاطبته قائلاً : انت مصيب في كل ما قلته ، ولكن الا ترى يا سيدي أنك بتشخيصك امراض المجتمع واوصابه قد ابنت لي انك احد الاطباء الماهرين وانه لا يجدر بالطبيب الاعراض عن العليل قبل ان يشفى او يموت ؟ ان العالم بحاجة ماسة الى امثالك وليس من العدل ان تعتزل عن الناس وانت قادر على نفعهم .

فحدق اليّ هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة : منذ البدء والاطباء يحاولون انقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً بدون رجاء ولا امل ، ويا ليت عليل الدهور يكتفي بملازمة مضجعه القذر ومؤانسة قروحه المزمنة ، ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره ممرضاً ويخنقه . والامر الذي يغيظني ويحوّل الدم في عروقي الى نار محرقة هو ان ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود فيغمض عينيه قائلاً لنفسه : لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيماً ... لا يا اخي . ليس بين الناس من يستطيع ان ينفع الناس ، فالحارث وان كان حكيماً ماهراً لا يقدر على استنبات حقله في ايام الشتاء .

فأجبته قائلاً : قد يمر شتاء العالم يا سيدي ويجيء بعده ربيع بهي جميل فتظهر الازهار في الحقول وتترنم الجداول في الاودية .

فقطب ما بين عينيه متنهداً ، وبصوت تعانقـه الكآبة قال : ليت شعري هل قسم الله حيـاة الانسان ، وهي الدهر بكامله ، الى فصول تشابه فصول السنة بسيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على سطح الارض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيـا بالروح والحق ؟ هل يأتي زمن يتمجد فيه الانسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك يا ترى ؟ هل يتم ذلك بعد ان تشبع الارض من لحوم البشر وترتوي من دمائهم ؟

وانتصب اذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير الى عـالم غير هذا العالم : تلك احلام بعيـدة ، وليست هـذه الصومعة منزلاً للأحلام ، لأن ما اعلمه يقيناً يشغل كل فسحة وكل قرنـة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الاودية وهذه الجبال . اما ما اعلمه يقيناً فهو هـذا : انا كائن موجود ، وفي اعمـاق وجودي جوع وعطش ، ولي الحق ان اتناول خبز الحياة وخمرها من الآنيـة التي اصنعها بيدي . من اجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية .

واخذ يمشي ذهاباً وإياباً في وسط تلك الغرفة وانا اتأملـه وأفكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صوّرت له الجامعـة البشرية بخطوط عوجاء وألوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلاً : اني احترم افكارك ومقاصدك يا سيدي ، واحترم وحدتك وانفرادك ، غير انني اعلم ، والعلم مجلبـة الاسف ، ان هذه الامة التعسة قـد فقدت بتنحيك وابتعـادك رجلاً موهوباً قادراً على خدمتها وايقاظها .

فأجاب هازاً رأسه : ليست هذه الامة الا كالأمم كافة . فالناس من جبلة واحـدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض الا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتدُّ بها ؛ فتعاسة الامم الشرقية هي تعاسة الارض بكاملها ؛ وليس ما تحسبه رقياً في الغرب سوى شبح آخر من اشباح الغرور الفارغ . فالرياء يظل رياء وان قلم اظافره ، والغش يبقى غشاً وان لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقـاً اذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول الى امانـة اذا ركب القطار او اعتلى المنطـاد ، والطمع لا ينقلب قنـاعة اذا قاس المسافات او وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وان سارت بين المعامل والمعاهد.. امـا العبودية : العبودية للحياة ، العبوديـة للماضي ، العبودية للتعاليم والعوائـد والازياء ، والعبودية للأموات فستبقى عبودية وان طلت وجهها وغيّرت ملابسها . العبودية تظـل عبودية حتى اذا دعت نفسها حرية . لا يا أخي ليس الغربي ارقى من الشرقي ولا الشرقي أحط من الغربي ، ومـا الفرق بينهما الا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً أولياً عادلاً يفرق التعاسة والعماوة والجهالة على السواء فلا يميّز شعبـاً عن شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة .

فقلت وقد بلغ بي الاستغراب حـد الالتباس : اذاً فالمدنية باطلة وكل ما فيها باطل .

فأجاب متهيجاً : نعم باطلة هي المدنية وباطل كل شيء فيها . فما الاختراعات والاكتشافات سوى الاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة

الملل والضجر ؛ وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والاودية والتغلب على البحار والفضاء غير اثار غشاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذي القلب ولا ترفع النفس. اما تلك الألغاز والأحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبيـة يجرها الانسان مبتهجـاً بلمعانها ورنين حلقاتها ؛ بل هي اقفاص ابتدأ الانسان بتطريق اعمدتها واسلاكها منذ القدم غير عالم بانه لا ينتهي من صنعها الا" ويجد نفسه أسيراً مسجوناً في داخلها ... نعم باطلة هي اعمال الانسان وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والاماني وباطل كل شيء على الارض . وليس بين اباطيل الحياة سوى امر واحد خليق بحب النفس وشوقهـا وهيامها — ليس هناك غير شيء واحد .

فقلت : وما ذلك يا سيدي ؟

فوقف دقيقة ساكتاً ثم اغمض اجفانه واضعاً يديه على صدره وقد اشرق وجهه وانبسطت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قـــال : هي يقظة في النفس ، هي يقظة في عمق اعماق النفس . هي فكرة تفاجىء وجدان الانسان على حـين غفلة وتفتح بصيرته فـيرى الحياة مكتنفة بالانغام ، محاطة بالهالات ، منتصبة كبرج من النور بين الأرض واللانهاية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الوسيع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل مـا يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يجاريها ، متمرداً على الذين لا يفهمون اسرارها — هي يد خفية قد ازالت الغشاء عن عيني وانا في وسط الاجتماع بين اهـلي

واصحابي ومواطني" فوقفت منذهلاً مدهوشاً قائلاً في نفسي : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين اليّ وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا اقيم بينهم ؛ بل لماذا اجالسهم واحادثهم ؟هل انا غريب بينهم ، ام هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي واسلمتني مفاتيحها ؟ ..

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت على حافظته صوراً واشباحاً لا يريد اظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً : هذا ما حلّ بي منذ اربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لأعيش في اليقظة متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة .

ومشى اذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً الى اعماق الليل ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة : هي يقظة في اعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع اظهارها بالكلام ومن لم يعرفها لا ولن يدرك اسرارها .

٤

ومرّت ساعة طويلة ممنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخري يمشي تارة في وسط تلك الحجرة ويقف طوراً في بابها محدقاً الى الفضاء العابس ، اما انا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه مستظهراً اقواله ، مفكراً بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثاني من الليل اقترب مني ونظر طويلاً الى وجهي كأنه يريد ان يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسر وحدته

وانفراده . ثم قال ببطء : انا ذاهب الآن للتجول في العاصفة ، وهي عادة امتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء . . . هناك ابريق القهوة واللفائف ، وان طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرّة . واذا شئت النوم تجد اللحف والمساند في تلك القرنة .

قال هذا والتف بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسماً : ارجوك ان توصد باب الصومعة عندما تذهب في الصباح لأنني سأصرف الغد في غابة الارز .

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلاً وقال : اذا فاجأتك العاصفة ثانية وانت في هذه النواحي فلا تتأخر عن الالتجاء الى هذه الصومعة . ولكنني أرجو ان تعلم نفسك حب العواصف لا الخوف منها ... مساء الخير يا أخي .

وخرج الى الليل مسرعاً .

ولما وقفت في باب الصومعة لأرى وجهته كان الظلام قد اخفاه ولكنني بقيت بضع دقائق اسمع وقع قدميه على حصباء الوادي .

جاء الصباح وقد مرّت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس ، فتركت الصومعة بعد ان اقفلت بابها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنوية التي تكلم عنها يوسف الفخري .

ولكنني لم ابلغ منازل الناس وأرَ حركاتهم واسمع اصواتهم حتى وقفت قائلاً في سري : نعم ، ان اليقظة الروحية هي اخلق شيء بالانسان بل هي الغرض من الوجود ، ولكن أليست المدنية بما فيها من

التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع انكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته ؟ قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً ولكن الناموس الابدي جعل الاعراض سلماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق .

ولم اجتمع ثانية بيوسف الفخري لان الحياة أبعدتني عن شمال لبنان في أواخر ذلك الخريف فجئت منفياً الى بلاد قصية عواصفها داجنة . اما التنسك فيها فضرب من الجنون .

الشيطان

كان الخوري سمعان عالماً بدقائق الأمور الروحية، متبسطاً بالمسائل اللاهوتية، متعمقاً باسرار الخطايا العرضية والمميتة، متضلعاً بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس.

وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفي أرواحهم من أمراض الاثم وينقذهم من حبائل الشيطان، فالشيطان كان عدو الخوري سمعان يحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل ولا تعب.

وكان سكان القرى يكرمون الخوري سمعان ويرتاحون الى ابتياع عظاته وصلواته بالفضة والذهب ويتسابقون الى اهدائه أطيب ما تثمره أشجارهم وافضل ما تنبته حقولهم.

ففي عشية يوم من ايام الخريف، وقد كان الخوري سمعان سائراً في مكان خال نحو قرية منفردة بين تلك الجبال والاودية، سمع انيناً موجعاً آتياً من جانب الطريق، فالتفت فاذا برجل عاري الجسم منطرح على الحصباء ونجيع الدم يتدفق من جراح بليغة في رأسه وصدره، وهو يقول مستنجداً: أنقذني. أعنّي. اشفق عليّ فانا مائت!

فوقف الخوري سمعان محتاراً ونظر الى الرجل المتوجع ثم قال في ذاته: هذا احد اللصوص الاشقياء واظن انه قد حاول سلب عابري

الطريق فغلب على امره . . . وهو منازع فاذا مات وانا بقربه اتهمت بما انا براء منه .

قال هذا وهمّ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله : لا تتركني ، لا تتركني ! انت تعرفني وانا أعرفك . أنا مائت لا محالة !

فقال الخوري في ذاته وقد اصفر وجهه ، وارتعشت شفتاه : اظنه احد المجانين الذين يتيهون في البرية . ثم عاد فقال لنفسه : ان منظر جراحه يخيفني فماذا عسى ان افعل له ؟ . . ان طبيب النفوس لا يستطيع ان يداوي الأجساد .

ومشى الخوري بضع خطوات ، فصاح الجريح بصوت يذيب الجماد قائلاً : اقترب مني اقترب ، فنحن اصدقاء منذ زمن بعيد . انت الخوري سمعان الراعي الصالح وأنا — أنا — لست بلص ولا بمجنون . اقترب ولا تدعني اموت وحيداً في هذه البرية الخالية . اقترب فأقول لك من انا .

فاقترب الخوري سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرساً فرأى وجهاً غريب الخطوط يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء ، والقباحة بالجمال ، والخباثة بالدماثة ، فتراجع الى الوراء وصرخ قائلاً : من أنت ؟

فقال المنازع بصوت خافت : لا تخف يا أبتِ فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد . أعنّي على النهوض وسر بي الى الساقية القريبة واغسل جراحي بمنديلك .

فصرخ الخوري : قل لي من انت ، فأنا لا اعرفك ولا اذكر أني رأيتك في حياتي .

فاجاب الجريح وحشرجة الموت تعانق صوته : انت تعلم من أنا ،

لقد لقيتني الف مرة وشاهدت وجهي في كل مكان. أنا اقرب المخلوقات اليك ، بل انا اعز عليك من حياتك .

فصاح الخوري قائلاً : أنت كاذب محتال ، وخليق بالمنازعين الصدق ، فانا لم أرَ وجهك في حياتي. قل من انت والا تركتك تموت مضرجاً بدمائك .

فتحرك الجريح قليلاً وشخص بعيني الخوري وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة معنوية وبصوت هادىء ناعم عميق قال : أنا الشيطان .

فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ارتعشت له زوايا ذلك الوادي ، ثم نظر اليه محدقاً فرأى ان جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيئة الأبالسة في صورة الدينونة المعلقة على جدار كنيسة القرية ، ثم صرخ مرتجفاً : لقد اراني الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهي ، فلتكن ملعوناً الى ابد الآبدين !

قال الشيطان : لا تكن متسرعاً يا أبتاه ، ولا تضيّع الوقت بالكلام الفارغ ، بل اقترب وضمّد جراحي قبل ان يسيل ما في جسدي من الحياة .

فقال الخوري : ان اصابعي التي ترفع الذبيحة الربانية في كل يوم لن تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعوناً من ألسنة الدهور وشفاه الانسانية لانك عدو الدهور والعامل على ابادة الانسانية .

فقال الشيطان متململاً : انت لا تدري ما تقول ولا تعلم اي ذنب تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبرك حكايتي . كنت اليوم سائراً وحدي

في هذه الاودية المنفردة ، ولما بلغت هذا المكان التقيت جماعة من اجلاف الملائكة فهجموا عليّ وضربوني ضرباً مبرحاً ، ولو لم يكن مع احدهم سيف ذو حدين لفتكت بهم جميعاً ، ولكن مـاذا يفعل الاعزل مع المسلح ؟

وقف الشيطان عن الكلام هنيهة واضعاً يده عـلى جرح بليغ في جانبه ثم زاد قائلاً : اما الملاك المسلح ، واظنه ميخائيل ، فـداهية يحسن ضرب السيف ، ولو لم أنطرح عـلى الارض وامثل دور النزع والموت لما ابقى مني عضواً بجوار عضو آخر .

فقـال الخوري بصوت تعـانقه رنة النصر والتغلب : ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد انقذ الانسانية من عدوها الخبيث !

فقال الشيطان : ليست عداوتي للانسانية اشد سواداً من عداوتك لنفسك . فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشيء ، وتجدف على اسمي في ساعة انكساري مع انني كنت ولم ازل سبباً لراحتك وسعادتك . أتجحد نعمتي وتنكر معروفي وأنت عائش في ظلال كياني ؟ اوَلم تتخذ وجودي صناعة لك واسمي دستوراً لاعمالك ؟ هل اغناك ماضيَّ عن حاضري ومستقبلي ؟ هل تمّت ثروتك الى حـد لا تحتمل معه الزيادة ؟ الا تعلم ان زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدي بـل يموتون جوعاً بموتي ؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالي ، وأية صنعة تحسنها اذا ابادت الارياح اسمي ؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجولاً بين قرى هذا الجبل لتحذر الناس من حبائلي وتبعدهم عـن مصائبي وهم يبتاعون مواعظـك بأموالهم وغلة حقولهم ، فـأي شيء

يتباعون منك غداً اذا علموا ان عدوهم الشيطان قد مـــات ، وانهم اصبحوا في مأمن من حبائله ومعاقله ، وأية وظيفة يسندها اليك القوم اذا الغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ؟ الا تعلم وانت اللاهوتي المدقق ان وجود الشيطان قد اوجد اعداءه الكهان وان تلك العداوة القديمة هي اليد الخفية التي تنقل الفضة والذهب من جيوب المؤمنين الى جيوب الوعاظ والمرشدين ؟ الا تعلم وانت العالم الخبير انه بزوال السبب يزول المسبب ؟ اذاً كيف ترضى بموتي وبموتي تفقـــد منزلتك وينقطع رزقك ويكف الخبز عن افواه زوجتك وبنيك ؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدلت في وجهه دلائل الاستعطاف بامارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : الا فاسمع ايها الغبي المكابر فاريك الحقيقة التي تضم كياني الى كيانك ، وتربط وجودي بوجدانك. في اول ساعة من الزمن وقف الانسان امـام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ للمرة الاولى قائلاً : ما وراء الأفلاك اله عظيم يحب الخير ! ثم ادار ظهره للنور فرأى ظله منبسطـــاً على اديم التراب فهتف قائلاً : وفي اعماق الأرض شيطان رجيم يحب الشر ! ثم سار نحو كهفه هامساً في نفسه : انا بين إلهين هائلين : اله انتمي اليه ، واله احـاربه . ومرت العصور اثر العصور والانسان بين قوتين مطلقتين : قوة تصعد روحه الى العلاء فيباركهـــا ، وقوة تهبط بجسده الى الظلمة فيلعنها . غير انه لم يكن يدري معاني البركة ولا مباني اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها . ولما بلغ الانسان فجر المدنية وهي الالفة البشرية ظهرت العائلة ثم القبيلة فتفرقت الاعمال بتفرق الميول ،

وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع ، فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الارض ، وآخرون ببناء المآوي ، وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بصهر المعادن . في ذلك العهد البعيد ظهرت الكهانة في الارض . وهي الحرفة الاولى التي ابتدعها الانسان بدون حاجة حيوية او داعٍ طبيعي اليها .

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثم قهقه ضاحكاً بصوت ارتعشت له تلك الاودية الخالية . وكأن الضحك قد اوسع فوهات كلومه فاسند خاصرته بيده متوجعاً ، ثم شخص بالخوري سمعان وزاد قائلا : في ذلك العهد ظهرت الكهانة في الارض . واليك يا أخي كيفية ظهورها : كان في القبيلة الأولى رجل يدعى « لاويص » ولا أدري لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب . وكان لاويص هذا رجلاً ذكياً ، ولكنه كان بطَّالاً متوانياً ، يكره حراثة الارض وبناء المآوي بكرهه رعاية المواشي وصيد الوحوش . بل كان يكره كل عمل يستلزم السواعد والحركة الجسدية . ولما كان الرزق في ذلك العهد لا يأتي الاّ بالعمل كان لاويص يبيت اكثر لياليه خاوي الجوف فارغه . ففي ليلة من ليالي الصيف وافراد تلك القبيلة ملتئمون حول كوخ زعيمهم يتحدثون عآتي يومهم ويترقبون النعاس ، انتصب احدهم فجأة واشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلا : انظروا نحو اله الليل فقد شحب وجهه واضمحل بهاؤه وتحول الى حجر اسود معلق بقبة السماء . فشخص القوم بالقمر ثم ضجوا صارخين ، متهيبين ، مرتعشين ، خائفين ، وكأن ايدي الظلام قد قبضت على قلوبهم لانهم رأوا اله لياليهم يتحول ببطء الى كرة

قاتمة وقد تغيّر لذلك وجه الأرض وانحجبت البطاح والأودية وراء نقاب اسود . فتقدم اذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرات عديدة في سابق حياته فوقف في وسط الجماعة رافعاً ذراعيه الى العلاء ، وبصوت أودعه كل ما في ذكائه من التصنع والاحتيال صاح قائلاً : اسجدوا ، اسجدوا وصلوا متهللين وعفروا وجوهكم بالتراب ، فاله الشر المظلم يصارع اله الليل المنير ، فاذا غلبه متنا واذا غُلِبَ بقينا عائشين . اسجدوا وصلوا وعفروا وجوهكم بالتراب ، بل اغمضوا اجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء ، لان من يشاهد صراع اله النور وإله الشر يفقد بصره ورشده ، ويظل مجنوناً وأعمى الى نهاية أيامه . خروا راكعين وساعدوا بقلوبكم إله النور على عدوه .

وظل لاويص يتكلم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله ألفاظاً جديدة غريبة مردداً كلمات ما سمعوها قبل تلك الليلة ، حتى اذا ما مرّ نصف ساعة وقد عاد القمر الى سابق كماله وجلاله رفع لاويص صوته عن ذي قبل وقال بلهجة تعانقها رنة الغبطة والسرور : قفوا الآن وانظروا ، فقد تغلب إله الليل على عدوه الشرير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم . واعلموا انكم بركوعكم وابتهالكم قد نصرتموه وسررتموه ولذلك ترونه الآن أبهى نوراً وأشد لمعاناً

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فاذا به قد عاد ساطعاً منيراً ، فتحول خوفهم الى طمأنينة واضطرابهم الى مسرة واخذوا يقفزون راقصين ويصرخون مهللين ويضربون بنبابيتهم صفائح الحديد والنحاس مفعمين خلايا ذلك الوادي بعويلهم وضجيج لهجتهم . . .

في تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له : لقد أتيت في هذه الليلة بما لم يأته بشري قبلك ، وعلمت من اسرار الحياة ما لا يعلمه بيننا سواك . فافرح وابتهج لانك ستكون من الآن وصاعداً صاحب المقام الاول من بعدي في هذه القبيلة . فأنا أشد الرجال بطشاً واقواهم ساعداً وانت اكثر الرجال معرفة واكثرهم حكمة ، بل انت الوسيط بيني وبين الآلهة تبلغني مشيئتهم وتبيّن لي اعمالهم واسرارهم وتعلمني ما يجب أن افعله لأكون حاصلاً على رضاهم ومحبتهم .

فأجاب لاويص : كل ما يقوله لي الآلهة في الحلم اقوله في اليقظة ، وما أراه من مآتيهم اظهره لك ، فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة .

فسُرَّ الزعيم ووهب لاويص فرسين وسبعة عجول وسبعين كبشاً وسبعين شاة وقال له : سوف يبني لك رجال القبيلة بيتاً يماثل بيتي ، وسيهدون لك في نهاية كل موسم قسماً من غلة الارض واثمارها فتعيش سيداً مطاعاً مكرماً .

وانتصب اذ ذاك لاويص للانصراف فأوقفه الزعيم وسأله قائلاً : ولكن من هو هذا الاله الذي تدعوه باله الشر ؟ من هو هذا الاله الذي يجسر ان يصارع اله الليل البهي ؟ اننا لم نسمع به قط ولا علمنا بوجوده .

ففرك لاويص جبهته واجاب قائلاً : اعلم يا سيدي انه في قديم الزمان ، وذلك قبل ظهور الانسان ، كان جميع الآلهة يعيشون بسلام ومودة في مكان قصي وراء المجرّة . وكان إله الآلهة ، وهو والدهم ، يعلم ما لا يعلمونه ويفعل ما لا يستطيع احدهم ان يفعله ، ويحفظ لنفسه بعض

الاسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الأزلية . ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر تمردت روح بعطار وهو يكره الاله الاعظم ، فوقف امام أبيه وقال : لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا اسرار الاكوان والنواميس والدهور ؟ اولسنا ابناءك وبناتك ومشاركين لك بقوّتك وخلودك ؟

فغضب اله الآلهة وأجاب : سوف أحفظ لنفسي القوة الاولية والسلطة المطلقة والاسرار الاساسية الى أبد الدهر ، فأنا البدء وانا النهاية . فقال بعطار : ان لم تقاسمني قوتك وجبروتك تمردت أنا وابنائي وأحفادي على قوتك وجبروتك . فانتصب اذ ذاك اله الآلهة فوق عرشه وقد امتشق المجرة سيفاً وقبض على الشمس ترساً ، وبصوت ارتعشت له جوانب العالم صرخ قائلاً : الا فاهبط ايها المتمرد الشرير الى العالم الادنى حيث الظلمة والشقاء وابقَ هناك منفياً شريداً تائهاً حتى تنقلب الشمس رماداً وتتحوّل الكواكب الى هباء منثور . في تلك الساعة هبط بعطار من مقر الآلهة الى العالم الادنى حيث تقيم الارواح الخبيثة . وقد اقسم بسر خلوده انه سيصرف الدهور محارباً والده واخوانه واضعاً الأشراك لكل محب لوالده او مريد لاخوانه .

فقال الزعيم وقد تقلصت جبهته واصفر وجهه : اذاً فاسم اله الشر بعطار ؟

فأجاب لاويص : كان اسمه بعطار اذ كان في مقر الآلهة ، ولكنه اتخذ بعد هبوطه الى العالم الادنى اسماء اخرى منها بعلزبول وابليس وسطنائيل وبليال وزميال واهريمان وماره وابدون والشيطان ، واشهرها الشيطان .

فردد الزعيم لفظة الشيطان مرات بصوت مرتعش يشابه حفيف الاغصان اليابسة لمرور الهواء ، ثم قال : ولماذا يا ترى يكره الشيطان البشر بكرهه الآلهة ؟

فأجاب لاويص : ان الشيطان يكره البشر ويعمل على ابادتهم لانهم من نسل اخوانه واخواته .

فقال الزعيم محتاراً : اذاً فالشيطان هو عم البشر وخالهم ؟

فأجاب لاويص وقال بلهجة لا تخلو من التشويش والالتباس : نعم يا سيدي ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم الحقود ، يملأ ايامهم بالتعاسة ولياليهم بالأحلام المخيفة . فهو القوة التي تحول العاصفة نحو اكواخهم وتحرق بالقيظ مزارعهم وتقرض بالأوبئة مواشيهم وتلامس بالأمراض اجسادهم . هو إله قوي شرير خبيث يضحك لشقائنا ويكتئب لافراحنا ، فعلينا ان نتفحص طباعه لنتقي شره وندرس اخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه على نبوته وهمس قائلا : قد عرفت الآن ما كان خافياً عني من اسرار تلك القوة الغريبة التي تحول العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشينا ، وسوف يعرف البشر كافة ما اعرفه الآن فيطوبونك يا لاويص لانك ابنت لهم خفايا عدوهم القوي وعلمتهم كيف يتقون حبائله .

وانصرف لاويص من امام زعيم القبيلة وذهب الى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشوانَ بخمرة خيالية . اما الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقلبون على مراقد محاطة بالاشباح المخيفة والاحلام المزعجة .

ووقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخوري سمعان يحدق اليه وفي عينيه جمود الحيرة والاستغراب وعلى شفتيه ابتسامة الموت .

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلا : كذا ظهرت الكهانة في الارض وهكذا كان وجودي سبباً لظهورها . وقد كان لاويص أول من اتخذ عداوتي صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة ابنائه واحفاده فنمت وتدرجت حتى صارت فناً دقيقاً مقدساً لا يتخذه غير اصحاب العقول المختمرة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . ففي بابل كان الناس يسجدون سبع مرات امام الكاهن الذي يحاربني بتعازيمه . وفي نينوى كانوا ينظرون الى الرجل الذي يدعي معرفة اسراري وخفاياي كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر . وفي ثيب كانوا يلقبون من يصارعني بابن الشمس والقمر . وفي بابلس وأفسس وانطاكية كانوا يضحون ابناءهم وبناتهم ارضاء لخصمي . وفي اورشليم ورومة كانوا يضعون ارواحهم في قبضة من يتفنن في كرهي وابعادي . في كل مدينة ظهرت امام وجه الشمس كان اسمي محوراً لدوائر الدين والعلم والفن والفلسفة . فالهياكل لم تقم الا في ظلالي ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهري ، والقصور والبروج لم ترتفع الا برفعة منزلتي . فانا العزم الذي يولد العزم في البشر ، وانا الفكرة التي تستنبت الحيلة في الافكار ، وانا اليد التي حركت ايدي الناس . انا الشيطان الأزلي الأبدي . انا الشيطان الذي يحاربه الناس ليظلوا عائشين . فاذا كفوا عن منازلتي لهم يوقف الخمول افكارهم ويميت الكسل ارواحهم وتفني الراحة اجسادهم . انا الشيطان الأزلي الأبدي .

انا عاصفة هوجاء خرساء اهب في ادمغة الرجال وصدور النساء واجرف ميولهم الى الاديرة والصوامع ليمجدوني بخوفهم مني او الى منازل البغي والخلاعة ليفرحوني باستسلامهم الى مشيئتي . فالراهب الذي يصلي في سكينة الليل لكي ابتعد عن مضجعه هو كالمومسة التي تناديني لكي اقترب من مضجعها . انا الشيطان الأزلي الأبدي . انا باني الاديرة والصوامع على اسس الخوف ، وانا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أسس الشهوة واللذة . فان زال كياني زال الخوف واللذة من العالم ، وبزوالهما تضمحل الميول والاماني في القلب البشري فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقيثارة مقطعة الاوتار مكسّرة الجوانب . انا الشيطان الأزلي الأبدي . انا موحي الكذب والنميمة والاغتياب والغش والسخرية ، فاذا انقرضت هذه العناصر في العالم اصبحت الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه سوى اشواك الفضيلة . انا الشيطان الأزلي الأبدي . انا ابو الخطيئة وامها ، فاذا ما زالت الخطيئة زال محاربوها وزلت انت ايضاً وزال ابناؤك واحفادك وزملاؤك ورصفاؤك . انا ابو الخطيئة وامها ، فهل تريد ان تموت الخطيئة بموتي ؟ هل تريد ان تقف الحركة البشرية بوقوف نبضات قلبي ؟ هل تريد ان تمحو السبب لتمحى المسببات ؟ انا هو السبب الوضعي ، فهل تريد ان اموت في هذه البرية الخالية ؟ اجبني ايها اللاهوتي ، هل تريد ان تنتهي العلاقة الاولية الكائنة بينك وبيني ؟

وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه الى الامام وتنهد طويلاً فظهر بلونه الرمادي المائل الى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصرية التي

ابقاها الدهر مطروحة على ضفاف النيل . ثم حدّق الى وجه الخوري سمعان بعينين مشعشعتين كالمسارج وقال : لقد نهكني الكلام وكان الأحرى بي وانا جريح منازع ان لا اطيل معك الحديث ، ومن العجيب اني قد استرسلت باظهار حقيقة انت ادرى بها مني ، وبيان امور هي ادنى الى صالحك منها الى صالحي . اما الآن فلك ان تفعل ما تشاء . لك ان تحملني على ظهرك وتذهب بي الى منزلك لتداوي جراحي ، او ان تتركني في هذا المكان لأنازع واموت .

وكان الشيطان يتكلم والخوري سمعان يرتعش ويفرك يداً بيد ، وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال : انا اعرف الآن ما لم اكن اعرفه منذ ساعة ، فسامح غباوتي . انا اعلم انك موجود في العالم لكي تجرّب ، والتجربة هي مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية . بل هي ميزان يستخدمه الله عز وجل ليدرك ثقل الارواح او خفتها . انا اعلم الآن أنك اذا مت تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التي تجعل الانسان متحذراً ، بل يزول السبب الذي يقود الناس الى الصلاة والصوم والعبادة . يجب ان تحيا لانك ان قضيت وعرف الناس يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثم يتمرغون بالاثم . من اجل ذلك يجب ان تحيا ، لان بحياتك خلاص الجنس البشري من الرذيلة . اما انا فسوف اضحي كرهي لك على مذبح محبتي للجنس البشري .

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثم قال : ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب ، بل وما اعمق معارفك بالأمور اللاهوتية !

فها قد اوجدت بقوة ادراكك سبباً لوجودي لم اكن اعرفه من قبل. والآن وقد فهم كلٌّ منا الاسباب الوضعية واللاهوتية التي اوجدتنا في البدء وتوجدنا الآن يجب ان نترك هذا المكان . اقترب يا اخي . تعالَ واحملني الى بيتك فانا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليـل البطاح بعد ان اهرقت نصف دمي على حصباء هذا الوادي .

فاقترب الخوري سمعان من الشيطان وقد شمّر عن ساعديه وشكل اطراف عباءته بحزامه ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق .

*

بين تلك الاودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقاب الليل ، سار الخوري سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت هيكل عارٍ وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة مـن كلومه .

الصلبان

المكان – منزل يوسف مسرة في بيروت .

الزمان – ليلة من ليالي الخريف سنة ١٩٠١ .

الاشخاص

بولس الصلبان – موسيقي وأديب .

يوسف مسرة – كاتب وأديب .

الآنسة هيلانة مسرة – شقيقة يوسف .

سليم معوّض – شاعر وعواد .

خليل بك تامر – موظف في الحكومة .

يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والاوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة .

خليل بك (مخاطباً يوسف مسرة) – قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها في الاخلاق وقد اعجبتني كثيراً ، ولولا صبغتها الافرنجية لكانت خير ما كتب في الموضوع . انا يا مسرة افندي من الذين يرون تأثير الآداب الغربية في لغتنا من الأمور المضرة .

يوسف مسرة (مبتسماً) – قد يكون الحق معك يا صديقي ولكن بارتدائك الملابس الافرنجية وبتناولك الطعام بآنية افرنجية وبجلوسك على مقاعد افرنجية قد عارضت ذاتك بذاتك ، وفوق كل ذلك انت اكثر ميلاً الى مطالعة الكتب الافرنجية منك الى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك – ليس لهذه الامور السطحية من علاقة بالآداب والفنون.

يوسف مسرة – نعم هناك علاقة حيوية وضعية . واذا تعمقت قليلاً في الموضوع تجد ان الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك – انا شرقي وسأبقى شرقياً الى آخر حياتي وقهراً عن بعض مظاهري الاوروبية ، فانا ارجو ان تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الاجنبية .

يوسف مسرة – اذاً انت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك – وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة – ان الامم المسنة التي لا تكتسب مما تثمره الامم الحديثة تموت ادبياً وتنقرض معنوياً .

خليل بك – ان كلامك هذا يحتاج الى برهان .

يوسف مسرة – لديّ الف برهان وبرهان .

« في هذه الدقيقة يدخل بولس الصلبان وسليم معوض فيقف الحاضرون لهما احتراماً »

يوسف مسرة – اهلاً وسهلاً بالاخوان « مخاطباً الصلبان » اهلاً وسهلاً ببلبل سوريا .

« الآنسة هيلانة تنظر الى الصلبان وقد توردت وجنتاها قليلاً وظهرت على محياها امارات السرور »

سليم معوض ـ بالله عليك يا يوسف لا تقل كلمة حسنة لبولس .

يوسف مسرة ـ ولماذا ؟

سليم معوض (بين الجد والمزاح) ـ لانه لا يستحق التكريم ولا المديح ولا الاطراء ، لانه ذو اطوار واخلاق غريبة ، لانه مجنون .

بولس الصلبان (مخاطباً معوض) ـ هل احضرتك برفقتي الى هذا المنزل لتبين عيوبي وتشرح اخلاقي ؟

الآنسة هيلانة ـ ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم افندي عيوباً جديدة في اخلاق بولس ؟

سليم معوض ـ ان عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن وتتحول عظامه الى تراب .

يوسف مسرة ـ اخبرنا . ماذا جرى ؟ اخبرونا بالحكاية من اولها الى آخرها .

سليم معوض (مخاطباً الصلبان) ـ هل تسمح لي ان اتكلم عن جرائمك يا بولس ام تريد ان تعترف انت بها ؟

بولس الصلبان ـ اريد ان تبقى صامتاً كالمقبرة ، هاجعاً كقلب العجوز .

سليم معوض ـ اذاً فسوف اتكلم .

الصلبان ـ يظهر لي انك تريد ان تنغص عيشي في هذه السهرة .

سليم معوض ـ لا بل اريد ان اعرض قصتك امام هؤلاء الاصحاب لينظروا في امرك .

الآنسة هيلانة (مخاطبة معوض) – تكلم واسمعنا ما جرى. « للصلبان » قد تكون الجريمة التي يريد سليم ان يظهرها احدى فضائلك .

الصلبان – لم اقترف جريمة كما انني لم افعل فضيلة . اما المسألة التي يتوق صاحبنا الى اظهارها فهي لا تستحق الذكر ، وفوق كل ذلك فانا لا اريدكم ان تصرفوا السهرة بحديثي .

الآنسة هيلانة – حسن . اذاً فلنسمع الخبر !

سليم معوض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) – قد سمعتم طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا ، وقد عرفتم ان والد العريس قد اقام ليلة امس حفلة طرب دعا اليها وجهاء المدينة وكبارها (مشيراً الى بولس) وقد دعا هذا الشرير ودعيت انا ايضاً والسبب في ذلك ان الناس يحسبونني ظلاً لبولس اسير حيث يسير واقوم حيث يقوم ، ولأنه ادامه الله وأبقاه لا يحب الانشاد الا على نقرات عودي . بلغنا منزل جلال باشا متأخرين وبولسنا كالملوك لا يجيء الا متأخراً ، فوجدنا هناك الوالي والمطران بل وجدنا هناك الحسناء الفاضلة والأديب والشاعر والمثري والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون الى بولس كأنه ملاك هبط من السماء . اما السيدات فأخذن يقدمن اليه كؤوس الخمر وصحاف النقل وطاقات الازهار مثلما كانت تفعل نساء اثينا عند رجوع احد الابطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام ان بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء ... اخذت عودي وضربت اولاً وثانياً وثالثاً ففتح بولس شفتيه المقدستين وانشد بيتاً . . . بيتاً واحداً من قصيدة ابن الفارض :

غيري على السلوان قادر وسواي في العشاق غادر

فأصغى القوم وتطاولت اعناقهم كأن الموصلي قد جاء من وراء حجب الأبدية ليهمس في آذانهم انغاماً سحرية علوية . وبعد ذلك سكت بولس فظن الحاضرون انه سيعود الى الانشاد بعد ان يشرب كأساً اخرى من العرق ، ولكن بولس ظل ساكتاً .

بولس الصلبان (بلهجة جديّة) — ارجوك ان تقف عند هذا الحد ، فأنا لا اقدر ان اسمع هذا الحديث البليد ، وانا لا اشك بان اصحابنا لا يجدون لذة بهذه الثرثرة الخالية من المعنى .

يوسف مسرة — بحقك دعنا نسمع البقية .

بولس الصلبان (ينهض من مكانه قائماً) — الظاهر انكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودي بينكم . اودعكم .

الآنسة هيلانة (تنظر الى بولس نظرة معنوية) — اجلس يا بولس ومهما كان الخبر فنحن معك .

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلد) .

سليم معوض (متابعاً حديثه) — قلت ان بولس المعطّر المعظّم قد أنشد بيتاً — بيتاً واحداً من قصيدة ابن الفارض وسكت . اعني بذلك أنه أذاق اولئك الجياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر آنيتها وكؤوسها ثم جلس ساكتاً جلوس ابي الهول على رمال النيل . وقامت السيدات الواحدة بعد الاخرى يستعطفنه بأرق الكلام لينشد اغنية اخرى فكان يعتذر لهن بقوله : انا مرشح ، اشعر بألم في حنجرتي . ثم قام الوجهاء والاغنياء يرجونه ويتذللون امامه فلم

يجنّ ولم يَلِن بل بقي جامداً قاسياً متمنعاً كأن الله قد ابدل قلبه بحجر من الصوّان وحوّل الانغام في نفسه الى الغنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حد الألم ناداه جلال باشا الى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلاً : انت تستطيع يا بولس افندي ان تختم حفلتنا بالسرور او بالأكدار، لذلك ارجوك ان تقبل مني هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري نحوك ، فلا تخيّب آمالي وآمال الحاضرين بك . عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير الى مقعد بجانبه قائلاً بلهجة الملوك الفاتحين : انت تهينني يا جلال باشا بل انت تحتقرني ، فأنا لم اجيء الى منزلك لكي انشد واغني وابيع انفاسي بالمال ، بل جئت كأحد المهنئين . بعد هذا فَقَدَ جلال باشا صبره وتجلده وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحسّاس يخرج من المنزل لاعناً مجدفاً . اما انا ، انا المسكين ، فقد تناولت عودي وتبعت بولس تاركاً ورائي الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيّبة والمآكل الشهية . نعم قد ضحيت كل ذلك لكي لا افقد صداقة هذا المتصلّب المتعنّت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا البعليم وهو للآن لم يشكرني ولم يمدح بسالتي ولم يعترف بمودتي وولائي .

يوسف مسرة (ضاحكاً) — هذه بالحقيقة حكاية لذيذة حرية ان تكتب بالابر على آماق البصر !

سليم معوض — لم اصل للآن الى نهاية الحكاية . اما اللذة ففي النهاية ، تلك النهاية الشيطانية التي لم يحلم بمثلها اهريمان الفرس ولا سيفا الهنود .

الصلبان (مخاطباً الآنسة هيلانة) - بقيت هنا اكراماً لك، والآن ارجوك ان تطلبي من هذا الضفدع ان يقف عند هذا الحد .

هيلانة - دعه يتكلم يا بولس ! ومهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سليم معوض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) - قلت اننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدف على اسم الاغنياء والوجهاء وانا اجدف على اسمه في سري . وبعد ذلك ... وبعد ذلك هل تظنون ان كلاً منا ذهب الى منزله ؟ هل تظنون ان ليلة امس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا ! تعلمون ان بيت حبيب سعادة محاذٍ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة . وانتم تعلمون ان حبيب سعادة من عشاق المدام والانغام والاحلام وممن يعبدون هذا البعلبكي (مشيراً الى بولس) . فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة في منتصف الشارع فاركاً جبهته كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ثم مشى فجأة نحو منزل حبيب سعادة وقرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتثاءب ، ولكنه عندما رأى وجه بولس ورآني حاملاً العود تحت ابطي تغيّرت سحنته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت امامه وصرخ مسروراً مؤهلاً قائلاً : ما اتى بكم في هذه الساعة المقدسة ؟ فأجاب بولس : قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك . فقال حبيب : هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم الى هذا المنزل الحقير ؟ فأجاب بولس : ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والاناشيد ،

من اجل ذلك جئنا اليك فهات قنينة العرق وصحفة المازه ولا تطل الكلام . الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كأساً او كأسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ثم ناولني العود وقال آمراً : هذه عصاك يا موسى فحوّلها الى افعى ومرها ان تبتلع جميع افاعي مصر . اضرب النهاوند واضرب طويلاً واضرب جميلاً . فتناولت العود وليس على العبد الا الطاعة وضربت النهاوند فحوّل بولس وجهه نحو منزل جلال باشا واخذ ينشد بصوت عال...

هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيماء المزاح عن وجهه ويقول بنهجة هادئة جدية :

انا اعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . اعرفه منذ كنا صبيين في المدرسة . ولقد سمعته منشداً في حالتي الفرح والشقاء . سمعته ينوح كالثكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته يهمس في سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها . وسمعته بين اودية لبنان واجراس الكنائس البعيدة يملأ الفضاء سحراً وهيبة . نعم لقد سمعته منشداً ألف مرة ومرة وكنت اتوهم انني اعرف حركات روحه وسكناتها . ولكنني في ليلة امس لما حوّل وجهه نحو منزل جلال باشا واغمض عينيه وأنشد :

كل يوم اشكو من غرام قلبي وكلما اشكو يزيد الغرام

عندما انشد هذا الدور متلاعباً بمقاطعه مثلما يتلاعب الهواء بأوراق الخريف قلت في نفسي : لا ، ما عرفت في الماضي من روح بولس الا القشور ، اما الآن فقد بلغت اللباب . لم اسمع في الماضي غير لسان

بولس منشداً اما الآن فإني اسمع قلبه وروحه ... وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرج من نشيد الى نشيد حتى خُيِّل لي ان في الفضاء طغمة من ارواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات الماضي البعيد ، ناشرة ما طوته الليالي من اماني البشر واحلامهم . نعم يا سادتي (مشيراً الى بولس) ان هذا الرجل قد صعد ليلة امس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ، ومن العجائب انه لم يهبط على الارض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع اعداءه تحت موطىء قدميه كما جاء في المزامير ! اما ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعادة حتى تزاحموا في النوافذ وجلسوا نساء ورجالاً يتأوهون بعد كل مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم الى الحديقة ووقفوا تحت الاشجار مغتبطين متعذبين مصغين محتارين في امر هذا البعليم الذي ينكيهم ويهينهم وفي الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية ، وقد كان البعض يناديه مستعطفاً مترجياً والبعض متوعداً مجدفاً . وقد علمت من احد المدعوين ان جلال باشا كان يزأر كالأسد متنقلاً من غرفة الى غرفة لاعناً الصلبان غاضباً على ضيوفه خصوصاً على اولئك الذين خرجوا الى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازه بأيديهم. هذا ما جرى ليلة امس، فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟ وما رأيكم بأطوار هذا الرجل واخلاقه الغريبة ؟

خليل بك — هذه حادثة عجيبة . اما رأيي فيها فهو هذا : انا من المعجبين بمواهب بولس افندي، ومع كل احترامي له اقول انه قد اخطأ ليلة امس ، فقد كان بإمكانه ان ينشد في بيت جلال باشا كما أنشد في

بيت حبيب سعادة ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنه (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف افندي ؟

يوسف مسرة — أنا لا ألوم الصلبان كما انني لا احاول فهم اسراره وخفاياه لعلمي ان المسألة شخصية تتعلق بـه دون سواه ولعلمي ان اخلاق الفنيين خصوصاً الموسيقيين منهم تختلف عن اخلاق الناس كافة . وليس من الصواب او العدالة ان نقيس اعمالهم ومآتيهم على المقاييس التي نستخدمها لادراك اعمال غيرهم . ان الفني — واعني بالفني ذلك المبدع الذي يخلق لأفكاره وعواطفه صوراً جديدة — هو رجل غريب بين اهله وخلانه وغريب في وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفني يميل شرقاً عندما يميل الناس غرباً ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه ان يبسطها ، فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعساء . ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء . الفني فوق الشريعة رضي الناس ام غضبوا .

خليل بك — ان كلامك هـذا يا يوسف افندي لا يختلف بمعانيه ومفاده عما جاء في مقالتك عـن الفنون الجميلة ، واسمح لي ان اقول ثانية ان الروح الغربية ، الروح الافرنجية التي تكرز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة .

يوسف مسرة — هل تحسب ما فعله بولس افندي ليلة امس مظهراً للروح الافرنجية التي تنكرها وتكرهها ؟

خليل بك — اني استغرب ما فعله بولس افندي . أقول ذلك مع الاحترام لشخصه .

يوسف مسرة — أوليس للصلبان تمام الحرية ان يفعل بصوته وفنه ما يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك – نعم له تمام الحرية ان يفعل ما يشاء ولكنني ارى ان حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . ان ميولنا وعاداتنا وتقاليدنا لا تسمح للفرد الواحد ان يفعل ما فعله بولس افندي ليلة امس بدون ان يضع نفسه في موقف حرج .

الآنسة هيلانة – هذه مناظرة لذيذة ومفيدة . ولكن بما ان السبب في هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع ان يدافع عن نفسه بنفسه .

بولس الصلبان (بعد سكوت طويل) – كنت اتمنى لو لم يفتح سليم هذا الحديث . بل كنت اود ان يزول ما جرى ليلة امس مع ليلة امس . ولكن بما انني في مركز حرج كما يقول حضرة البك فأنا لا ارى بداً من اظهار افكاري في هذا الموضوع . انتم تعلمون وأنا اعلم ايضاً ان اكثر من يعرفني ينتقدني . هذا يقول انني مغنج وذلك انني اعوج . وهنالك فئة تقول انني لئيم وليس للئيم كرامة . وما هو السبب يا ترى في هذه الانتقادات الجارحة ؟ ان السبب في اخلاقي . نعم في اخلاقي التي لا اقدر ان اغيرها ولو قدرت لما اردت . ولماذا يا ترى يهتم الناس بي وباخلاقي ؟ أليس بامكانهم ان يتناسوا كياني ؟ في هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين والموسيقيين وكثير من الشعراء والمقرظين وكثير من المبخرين والشحاذين الذين يبيعون اصواتهم وافكارهم وعواطفهم بل ويبيعون نفوسهم بدينار او بعلفة او بقنينة من الخمر. وقد عرف اغنياؤنا ووجهاؤنا هذا السر، لذلك تراهم يبتاعون ابناء الفن والأدب ببخس الاثمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما

يعرضون خيولهم ومركباتهم في الساحات والطرق . نعم ايها السادة ان المغنين والشعراء في الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم ان ينشدوا في الاعراس ويترنموا في الحفلات ويندبوا في المآتم ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي تدار في ايام الحزن وليالي الافراح ، فاذا لم يكن من داعٍ للحزن او الفرح طرحوا جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وانا لا ألوم الوجهاء والاغنياء بل ألوم المغنين والشعراء والادباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضنون بماء وجوههم . ألومهم لانهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . ألومهم لانهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل .

خليل بك (متهيجاً) — ان القوم كانوا يستعطفونك ليلة امس ويحاولون بكل وسيلة لديهم ان يسترضوك لتتكرم عليهم باغنية او نشيد . فهل تحسب انشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع والتذلل ؟

بولس الصلبان — لو استطعت الانشاد في منزل جلال باشا لفعلت . ولكني نظرت حولي فلم اجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الاصوات إلا رنات الدنانير ، والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة الا ما يرفعهم ويخفض سواهم . نظرت حولي فلم أجد من يميّز النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الاصفهان ، لذلك لم استطع ان أفتح صدري امام العميان او اعرض اسرار قلبي امام الطرشان . انما الموسيقى لغة الأرواح . هي سيّال خفي يتموج بين روح المنشد وارواح السامعين ، فاذا لم يكن هناك من ارواح تسمع وتفهم ما تسمع فالمنشد

يفقد ذلك الميل الى البيان ويفقد ذلك الشوق الى اظهار ما في اعماقه من الحركات والسكنات . والموسيقي مثل قيثارة ذات اوتار مشدودة حساسة فاذا تراخت تلك الاوتار فقدت خاصتها واصبحت كخيوط من الكتان . (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول ببطء) — لقد تراخت أوتار روحي في منزل جلال باشا عندما تفرست في الحاضرين نساء ورجالاً ولم أرَ بينهم غير المتكلف والمتصنعة والمتقلد والبليدة والعقيم والمتعجرفة . اما استعطافهم إياي فلم يكن ناتجاً الا عن تمنعي وسكوتي. ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتم احد بي .

خليل بك (يقاطعه مداعباً) — وبعد ذلك ذهبت الى منزل حبيب سعادة . وللنكاية — وللنكاية فقط — جلست منشداً حتى الصباح !

بولس الصلبان — جلست منشداً حتى الصباح لاني أردت ان أفرغ مكنونات قلبي . لانني اردت ان ألقي حملاً ثقيلاً عن عاتقي . لانني اردت ان اعاتب الليل والحياة والدهر . لانني شعرت بحاجة ماسة الى شد تلك الاوتار التي تراخت في منزل الباشا . اما اذا كنت تظن يا خليل بك انني اردت النكاية فلك الحق بان تفكر بما تريد . ان الفن طائر حر يسبح محلقاً عندما يشاء ويهبط الى الارض عندما يشاء، وليس من قوة في هذا العالم تستطيع تقييده او تغييره . الفن روح سام لا يباع ولا يشرى ، وعلى الشرقيين ان يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . اما الفنيون بيننا — وهم اندر من الكبريت الاحمر — فعليهم ان يكرموا نفوسهم لانها الاناء الذي يملأه الله خمرة علوية .

يوسف مسرة — اني متفق معك يا بولس . ولقد ابنت أفكاري في

هذا الموضوع بصورة لا استطيع انا اظهارها . انت ابن الفن امـا انا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة .

سليم معوض – الصلبان يتكلم مثلمـا ينشد وليس على سامعـه الا الاقتناع والاذعان .

خليل بك – لم أقتنع بعـــد ولن أقتنع . وما فلسفتكم هـذه الا احدى تلك العلل المتسربة الينا من بلاد الافرنج .

يوسف مسرة – لو سمعت الصلبان منشداً يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة .

في هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخاطب الآنسة هيلانة : – يا معلمتي قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة .

يوسف مسرة – « ينتصب مخاطباً الجميع » تفضلوا ايهـا الاخوان فقـــد هيأنا لكم أكلة لذيذة ، لذيذة جـداً ، وتكاد تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها !

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة وخليل بـك وسليم معوض ، اما الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين في وسط القاعة وكل يحدق الى وجه الآخر وفي عينيهما اشعة لا توصف) .

هيلانة (هامسة) – هل علمت انني كنت مصغية اليك ليلة امس؟

الصلبان (مستغرباً) – ماذا تعنين يا هيلانة قلبي ؟

هيلانة (بخجل ووجل) – كنت امس في بيت شقيقتي مريم . ذهبت لانام عندها لان زوجها متغيب وهي تخاف وحدها .

الصلبان – اوَبيت صهرك على طريق الحرج ؟

هيلانة – ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زقاق ضيق .

الصلبان – وهل سمعتني منشداً ؟

هيلانة – سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر . سمعتك حتى سمعت الله متكلماً .

(يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلاً :)

« تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة »

(يخرج بولس وهيلانة . الستار !)

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد .

جلس الامير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتّقدة ، فجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد امامه وقوف الانصاب امام وجه الشمس .

بعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من انشادهم ، وتوارت انفاسهم بين طيّات اثواب الليل ، وقف كبير الوزراء امام الامير وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة :

ايها الامير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط بمثلها ، فهو يدعو الناس الى الاعتقاد بتقمص الارواح من جسد الى جسد ، وانتقال النفوس من جيل الى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير الى مصف الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه امامك .

فهز الامير رأسه وقال مبتسماً :

من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فأدخلوه لنسمع حجته .

ولم تمر دقيقة حتى دخل كهل اسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو

عينين كبيرتين ، وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطـق عن اسرار عميقة وميول غريبة ، وبعد ان انحنى مستأذنـاً رفع رأسه وتلمعت عينـاه وطفق يتكلم عن بدعته مظهراً كيف تنتقل الارواح من هيكـل الى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرجة بتأثيرات الامور التي تختبرها ، متمايلة مع الامجاد التي ترفعها وتقويهـا ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها ... ثم تطرّق الى كيفيـة انتقال النفوس مـن مكان الى مكان باحثة عما تحتاج اليه من الكماليات مكفرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها مستغلة في بلد ما زرعته في بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الامير سيماء الملل والضجر اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس في اذنه قائلاً : كفى الآن فدع البحث الى فرصة ثانية .

فتراجع الحكيم الى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً اجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق الى خفايا الوجود واسراره .

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الانبياء تلفّت الامير الى اليمين والى اليسـار ثم سأل قائلاً : اين شاعرنا ؟ فقد مرّ زمن ولم نره ... ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟

فقال احد الكهان : قد رأيته منذ اسبوع جالساً في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه اضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده .

وقال احد القواد : قـد رأيته بالأمس واقفاً بين اشجار السرو والصفصاف فحييته ولم يرد التحية بل ظل غارقاً في بحر افكاره واحلامه .

وقال رئيس الخصيان : قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته اصفر اللون ، شاحب الوجه ، تراود الدموع اجفانه وتتلاعب الغصّات بأنفاسه .

قال الأمير بصوت تلاحقه اللهفة : اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد شغل بالنا امره .

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر وظل الامير واعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الامير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الامير قائلاً : ما الخبر ... ماذا جرى؟

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً : قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر . فانتصب الامير وقد علت سحنته سيماء الحزن والكمد، ثم خرج الى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا اطراف الحديقة حيث اشجار اللوز والرمان جلت لهم اشعة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الاعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان : انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته فتعاهدا على أن يموتا معاً .

وقال احد القواد : لم يزل يحدق الى اعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف .

وقال رئيس الكهان مخاطباً الامير : غداً نقبره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة ، فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان

قصائده وتنثر العذارى الازهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً .

فهزّ الأمير رأسه دون ان يحول عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء : لا . لا . لقد اهملناه اذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من اشباح نفسه ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فاذا ما اكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والاودية . ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه وابقوا قيثارته بين ذراعيه . وان كان بينكم من يريد ان يكرمه فليذهب الى بيته ويخبر ابناءه بان الأمير قد اهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً : اين الفيلسوف الهندي ؟

فتقدم الفيلسوف وقال : ها انذا ايها الأمير العظيم .

فقال الأمير : قل — قل ايها الحكيم — هل ترجعني الآلهة أميراً الى هذا العالم وتعيده شاعراً ؟ هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم ، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير ؟ هل توقفه النواميس ثانية امام وجه الأبدية لينظم الحياة شعراً وتعيدني لأنعم عليه وافرح قلبه بالهبات والعطايا ؟

فأجاب الفيلسوف قائلاً : كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح ، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ثم مشى نحو قصره مفكراً في اقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله : كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الأرواح .

٢

في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد .

طلع القمر والقى وشاحه الفضي على المدينة ، وأمير البلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر الى الفضاء الصافي ، مفكراً بمآتي الأجيال التي مرّت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً اعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة ابي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي سيرها الدهر من جوانب الأهرام الى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة افكاره ، وانبسطت مسارح احلامه ، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال : في نفسنا الليلة ميل الى الشعر فانشدنا شيئاً منه .

فحنى النديم رأسه واخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي فقاطعه الأمير قائلاً : انشدنا شعراً احدث عهداً .

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد ابياتاً لأحد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال : احدث عهداً ... احدث عهداً .

فانحنى النديم للمرة الثالثة واخذ يترنم بمقاطيع موشح اندلسي .

فقال الأمير : انشدنا قصيدة لشاعر معاصر .

فرفع النديم يده الى جبهته كأنه يريد ان يستحضر الى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ، وطفق يرتل ابياتاً خيالية ذات رنة سحرية ، ومعانٍ رقيقة مبتكرة ، وكنايات

لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعاً وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً .

فحدق الأمير الى نديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها . وشعر بوجود أيدٍ خفية تجتذبه من ذلك المكان الى مكان قصي . ثم سأل قائلاً : لمن هذه الابيات ؟

فأجاب النديم : للشاعر البعلبكي .

الشاعر البعلبكي ! كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الأمير وولدتا في داخل روحه النبيلة اشباح ميول ملتبسة بوضوحها قوية بدقتها .

الشاعر البعلبكي اسم قديم جديد ، اعاد الى نفس الأمير رسوم ايام منسية وايقظ في اعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم امام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء .

وامحت هذه الرؤيا امام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ، مردداً آية النبي العربي : وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه تُرجعون .

ثم التفت نحو نديمه قائلاً : يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه . وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض : انما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ويجيء هذا العالم مغرداً ، فان لم نكرمه يفتح جناحيه ويعد طائراً الى مواطنه .

وانقضى الليـل فخلع الفضاء اثوابه المرصعة بالنجوم ولبس قميصه المنسوج من اشعة الصباح ، ونفس امير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحياة واسرارها .

السم في الدسم

في صباح يوم من ايام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية تولا حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي الى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركاً عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة اشهر .

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن ابيه وجده . ومع انه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعندما اقترن في اواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس : ما اسعده فتى ! فهو قد حصل قبل ان يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم ان الشيخ فارس قدجمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون ان يودع نسيباً او صديقاً ، تعاظمت ظنونهم واخذوا يتساءلون عن الاسباب الخفيّة التي جعلته يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه .

ان الحياة في شمال لبنان اقرب الى الاشتراكية منها الى كل تعليم

آخر ، فالقوم هناك يتساهمون افراح الوجود وشدائده مدفوعين بميول فطرية وضعيه . فاذا ما جاءت الايام بحادث الى قرية ينصرف سكانها بكليتهم الى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الايام اليهم بأمر آخر .

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن اعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مار تولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال .

وبينما هم على هذه الحالة اذا بالخوري اسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين ، فظل ساكتاً يفرك يداً بيد ، وبعد هنيهة قال :

لا تسألوني . لا تسألوني . كل ما اعرفه يا ابنائي هو هذا : قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر . ولما فتحت له وجدته متمسكاً بقود فرسه وعلى وجهه امارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد فقال : جئت لأودعك يا ابتي ، فأنا مسافر الى ما وراء البحار ولن اعود الى هذه البلاد وانا حي . ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب الي ان اسلمها اليه يداً بيد . فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعاً قبل ان استوضح امره . هذا كل ما اعرفه . فلا تسألوني الزيادة .

فقال احد الواقفين :

لا شك ان في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لان نجيب مالك كان اعز صديق له في القرية .

وقال آخر :

وهل رأيت عروسته يا ابتاه ؟

فأجاب الكاهن :

قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر الى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت ادراكها ، ولما سألتها هزت رأسها وقالت : لا ادري . لا ادري . ثم طفقت تبكي وتنتحب كالأطفال .

ولم ينتهِ الكاهن من كلامه الا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء ، فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالاً وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظراً اجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم . رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من امعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزّق اثوابها وتصرخ متوجعة : قد قتل نفسه . قد اطلق البندقية في صدره

فبهت القوم كأن اكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على ارواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في يمينه الرسالة التي كان قد سلمه اياها في ذلك الصباح ، وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد ان يجعلها جزءاً من اصابعه ، فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون ان يراه احد ثم تراجع الى الوراء لاطماً وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر الى بيت والدته المسكينة التي لم ترَ جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتدنها الى منزلها بين حية وميتة .

*

ولما بلغ الخوري اسطفان منزله اوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلاً الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك ، وبصوت مرتعش اخذ يقرأ :

اخي نجيب ،

انا تارك هذه القرية لان وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي ايضاً . انا اعلم انك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك . واعلم ان زوجتي سوسان طاهرة الذيل ، ولكنني اعلم في الوقت نفسه ان الحب الذي يضم قلبك الى قلبها هو امر فوق ارادتكما، فأنت لا تستطيع ازالته كما انك لا تقدر ان توقف مجاري نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً لي يا نجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة . وانت لم تزل صديقي امام الله ، وارجوك ان تفكر بي في المستقبل مثلما كنت تفكر بي في الماضي ، واذا التقيت سوسان غداً او بعده فقل لها اني أحبها وارحمها . وقل لها ايضاً اني كنت اذوب شفقة عندما كنت استيقظ في سكينة الليل واراها راكعة امام صورة يسوع تبكي وتنتحب وتجلد صدرها . ليس اصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت في حرب دائمة . كانت تريد ان تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن

قادرة على قتل عواطفها . اما انا فمسافر الى مكان بعيد ولن اعود الى هذه الديار لاني لا اريد ان اكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما. وفي الختام ارجوك يا اخي ان تبقى مخلصاً لسوسان وان تحافظ عليها حتى النهاية لانها قد ضحت كل شيء من اجلك . فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل ان يقدمه للمرأة . ابقَ يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لأخيك

فارس الرحال

ولما انتهى الخوري اسطفان من قراءة الرسالة طواها واعادها الى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر الى الوادي البعيد وعلى وجهه المتجعد امارات التفكير العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا افكاره سراً دقيقاً هائلاً محجوباً بالظواهر ملتفاً بالسطحيات . فهتف صارخاً : ما اكثر دهاءك يا فارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت اليه بالسم ممزوجاً بالعسل . قد بعثت اليه بالسيف ملتفاً بالحرير . قد بعثت اليه بالموت طي الرسالة . فعندما صوّب بندقيته الى صدره كانت يدك قابضة على يده وارادتك محيطة بارادته ... اواه ما اكثر دهاءك يا فارس الرحال!

وعاد الخوري اسطفان فجلس على المقعد هازاً رأسه ممشطاً لحيته باصابعه مبتسماً ابتسامات ذات معانٍ أشد هولاً من المأساة ، وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قريبة واخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والاخرى ليسمع صراخ النساء آتياً من قلب القرية .

ما وراء الرداء

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدّقت هنيهة الى سقف الغرفة ثم اغمضتهما وتنهدت تنهدة عميقـــة متقطعة ، وبصوت يـكاد يكون لهاثاً قالت :

ها قد بلغ الصباح اطراف الوادي ، فلنذهب الى لقائه .

فاقترب اذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدهـا باردة كالثلج ، ثم وضع اصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكنـاً كالدهور ، فحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد ان يلفظ كلمة علوية ترددها اشباح الليل في تلك الأودية القاصية الخالية . ثم صلّب ذراعيهـا فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملؤه الشفقة والانعطاف : قد ذهبت زوجتك الى لقاء ربهـا . فقم يا أخي واركع بجانبي لنصلي .

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه و كبرت عيناه كأنه رأى في فضاء الغرفة ظل إله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً ، منتحباً ، راسماً بين الآونـة والاخرى اشارة الصليب على وجهه وصدره .

وانتصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلاً :

قم يا اخي ! تعـــالَ الى الغرفة الثانية . فأنت بحاجة الى النوم والراحة .

فلم يبدِ الرجل معارضة ، بـــل وقف وسار الى الغرفة المحـاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار .

ولم تمر بضع دقـائق حتى غلب النوم اجفانه فرقد كطفل بـــين ذراعي امه .

*

اما الكاهن فظل منتصبـاً كالتمثال في وسط تلـك الغرفة ينظر بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ويلتفت كل دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية .

ومرّت ساعة اطول من الدهر وأشد هـولاً من المـوت والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين — رجل راقد رقود حقل يحـلم بمجيء الربيع ، وامرأة راقدة مع الازمنة الغابرة تحلم احلام الأبدية .

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا امامها كما يجثو امام المذبح ، ثم اخذ يدها الباردة ووضعها عـلى شفتيه المرتجفتين ونظر الى وجهها المتشح بنقاب الموت ، وبصوت هادىء كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :

يا راحيل ، يا راحيل ، يا اخت روحي ، اسمعيني يا راحيل فـانا استطيع الآن الكلام . قد فتح الموت شفتي لأبوح لك بسر اعمق من

الموت ، واطلق الالم لساني لاكشف لك امراً أشد من الالم . اسمعي صراخ روحي ايتها الروح المرفرفة بين الارض واللانهاية . اسمعي الشاب الذي كان يراك راجعة من الحقل فيتنحى محتجباً بين الاشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعي الكاهن الذي يخدم الله فهو يناديكِ الآن بلا وجل لانك بلغت مدينة الله .

همس هذه الألفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبل عنقها – قبلات طويلة حارة ، خرساء ، علوية تبين ما في نفسه من اسرار الحب والالم .

ثم تراجع فجأة الى الوراء وارتمى على الارض مرتعشاً كأوراق الخريف كأن ملامسة وجه المرأة المثلجة قد ايقظت في داخله عاطفة الندم ، ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلاً في سره :

اغفر ذنبي يا رب ! سامح ضعفي يا الهي ! فأنا لم اتجلد حتى النهاية . فالسر الذي اخفته الحياة في قلبي سبعة اعوام قد اباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لي يا رب . سامح ضعفي يا الهي ...

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ولا ينظر الى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح والقى وشاحه الوردي على تلك الرسوم الهيولية التي تمثل الحب والدين والحياة والموت .

البنفسجة الطموح

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف ، تعيش قانعة بين اترابها وتتمايل فرحة بين قامات الاعشاب .

ففي صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرّد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهدة : ما اقل حظي بين الرياحين ، وما اوضع مقامي بين الأزهار ! فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة ، اعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا استطيع ان ارفع قامتي نحو ازرقاق السماء او أحول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت : ما اغباك بين الأزهار ! فأنت في نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخلّي عنك هذه الميول العوجاء والأماني الشريرة وكوني قنوعاً بما قسم لك واعلمي ان من خفض جناحه رفع قدره ، وان من طلب المزيد وقع في النقصان .

فاجابت البنفسجة قائلة : انت تعزينني ايتها الوردة لانك حاصلة

على ما اتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لانك عظيمة . وما امرّ مواعظ السعداء في قلوب التاعسين وما اقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء !

*

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة :

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، ام سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟

فاجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :

ايتها الام العظيمة بجبروتها ، الهائلة بحنانها ، اضرع اليك بكل ما في قلبي من التوسل ، وما في روحي من الرجاء ، ان تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً .

فقالت الطبيعة : انت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية ، فاذا رفعت قامتك وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم .

فقالت البنفسجة : حوّلي كياني البنفسجي الى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس . ومهما يحل بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي .

فقالت الطبيعة : لقد اجبت طلبك ايتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ، ولكن اذا دهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك .

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار . تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالاعصار ثم هاجت سواكن الوجود فابرقت ورعدت واخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الامطار والأهوية ، فكسرت الاغصان ولوت الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبقِ الا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض او تختبىء بين الصخور .

اما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى اصبحت ازهارها هباء منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة .

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلّ بازهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة : الا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً وعُجباً .

وقالت بنفسجة أخرى : نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء .

وقالت بنفسجة ثالثة : نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا .

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة

التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت اوراقها الرياح والقتها على الاعشاب المبللة فبانت كقتيل ارداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدّت اوراقها ونادت رفيقاتها قائلة : تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن الى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكن هذا المشهد امثولة لكنّ .

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

الا فاسمعن ايتها الجاهلات القانعات ، الخائفات من العواصف والاعاصير . لقد كنت بالأمس مثلكنّ اجلس بين اوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة واهويتها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة ، متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكاني ان اعيش نظيركن ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه واذهب كمن ذهب قبلي الى سكينة الموت والعدم قبل ان اعرف من اسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي . ولكني أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم : « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود . » فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني ، وما زلت اتمرد على ذاتي واتشوق الى ما ليس لي حتى انقلب تمردي الى

١١

قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبت الى الطبيعة – وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية – ان تحولني الى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها باصابع الميل والتشويق .

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق :

لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت الى الكون من وراء عيون الورود ، وسمعت همس الاثير بآذان الورود ، ولمست ثنايا النور باوراق الورود . فهل بينكنّ من تستطيع ان تدّعي شرفي ؟

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت :

انا اموت الآن . اموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . اموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه ، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالي .

واطبقت الوردة اوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية – ابتسامة من حققت الحياة امانيه – ابتسامة النصر والتغلب – ابتسامة الله .

الشاعر

انا غريب في هذا العالم .

انا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير انها تجعلني افكر أبداً بوطن سحري لا اعرفه ، وتملأ احلامي بأشباح ارض قصية ما رأتها عيني .

انا غريب عن اهلي وخلاني ، فاذا ما لقيت واحداً منهم اقول في ذاتي : من هذا ، وكيف عرفته ، واي ناموس يجمعني به ، ولماذا اقترب منه واجالسه ؟

انا غريب عن نفسي ، فاذا ما سمعت لساني متكلماً تستغرب اذني صوتي ، وقد ارى ذاتي الخفية ضاحكة ، باكية ، مستبسلة ، خائفة ، فيعجب كياني بكياني ، وتستفسر روحي روحي ، ولكنني ابقى مجهولاً مستتراً ، مكتنفاً بالضباب ، محجوباً بالسكوت .

انا غريب عن جسدي ، وكلما وقفت امام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي ، وأجد في عيني ما لا تكنه اعماقي .

اسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين : هوذا الاعمى فلنعطه عكازة يتوكأ عليها . فأهرب منهم مسرعاً . ثم ألتقي سرباً من الصبايا فيتشبثن بأذيالي قائلات : هو اطرش كالصخر فلنملأ اذنيه

بأنغام الصبابة والغزل . فأتركهن راكضاً . ثم ألتقي جماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين : هـو اخرس كالقبر فتعالوا نقوّم اعوجاج لسانه . فأغادرهم خائفاً . ثم ألتقي رهطاً من الشيوخ فيومئون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين : هو مجنون اضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان .

*

انا غريب في هذا العالم .

انا غريب وقد جبت مشارق الارض ومغاربها فلم اجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع بي .

أستيقظ في الصباح فأجدني مسجوناً في كهف مظلم تتدلى الافاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته ، ثم اخرج الى النور فيتبعني خيال جسدي ، اما خيالات نفسي فتسير امامي الى حيث لا ادري ، باحثة عن امور لا افهمها ، قابضة على اشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء اعود واضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القتاد فتراودني افكار غريبة وتتناوبني ميول مزعجة مفرحة موجعة لذيذة ، وعندما ينتصف الليل تدخل عليّ من شقوق الكهف اشباح الازمنة الغابرة وأرواح الامم المنسية فأحدق اليها وتحدق اليّ ، واخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ثم احاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كالدخان .

*

انا غريب في هذا العالم .

انا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي .

اسير في البرية الخالية فأرى السواقي تتصاعد متراكضة من اعماق الوادي الى قمة الجبل ، وارى الاشجار العارية تكتسي وتزهر وتثمر وتنثر اوراقها في دقيقة واحدة ، ثم تهبط اغصانها الى الحضيض وتتحول الى حيات رقطاء مرتعشة . وأرى الاطيـار تنتقل متصاعدة ، هابطة ، مغردة ، مولولة ، ثم تقف وتفتح اجنحتها وتنقلب نساء عاريات ، محلولات الشعر ، ممدودات الاعناق ، ينظرن اليّ من وراء اجفان مكحولة بالعشق ويبتسمن لي بشفاه وردية مغموسة بالعسل ويمددن نحوي أيدياً بيضـاء ناعمة معطّرة بالمر واللبان ، ثم ينتفضن ويختفين عن ناظري ويضمحللن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن مني واستهزائهن بي .

انا غريب في هذا العالم .

انا شاعر انظم ما تنثره الحيـاة وانثر ما تنظمه ، ولهذا انا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني الى وطني .

الكلام

وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين .

لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين .

لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين .

استيقظ في الصباح فأرى الكلام جالساً بجانب مضجعي على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر اليّ بعيون ملؤها الدهاء والخبث والرياء .

اغادر فراشي واجلس الى جانب النافذة لازيح نقاب النوم عن بصيرتي بفنجان من القهوة فيتبعني الكلام وينتصب امامي راقصاً صارخاً معربداً ثم يمد يده مع يدي الى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافي . واذا تناولت لفافة يتناولها معي . واذا رميت بها رماها معي أيضاً .

واقوم للعمل فيلحق بي الكلام موسوساً في اذني ، مهمهماً حول رأسي ، مقرقعاً في خلايا دماغي . فاحاول طرده فيضحك مقهقهاً ثم يعود الى الوسوسة والهمهمة والقرقعة .

اخرج الى الشارع فأرى الكلام واقفاً في باب كل حانوت ، منبسطاً على جدران كل منزل . اراه في اوجه الناس وهم صامتون . وفي حركاتهم وسكناتهم وهم لا يدرون .

ان جالست صديقي يكون الكلام ثالثنا . وان التقيت عدوّي ينتفخ الكلام اذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحولاً الى جيش عرمرم اوله مشارق الارض وآخره مغاربها . فاذا غادرته هارباً ظلّ صدى كلامه يتمايل مختبطاً في باطني اختباط الطعام لا تهضمه المعدة .

اذهب الى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبا الكلام وأخاه وهم يلبسون الكذب رداء والاحتيال عمامة وحذاء .

ثم اسير الى المعمل والى المكتب والى الادارة فأجد الكلام واقفاً بين امه وعمته وجدته وهو يقلب لسانه بين شفتيه الغليظتين وهن يبتسمن له ويضحكن مني .

واذا بقي لي شيء من العزم والتجلد وزرت المعابد والهياكل رأيت هناك الكلام جالساً على عرشه وهو متوج الرأس وفي يده صولجان دقيق الصنع لطيف الجوانب ناعمها .

وعندما اعود في المساء الى غرفتي اجد الكلام الذي سمعته سحابة نهاري متدلياً كالافاعي من سقفها ، منسلاً كالعقارب في قرانيها .

الكلام في الفضاء وما وراءه ، وعلى الارض وتحتها .

الكلام على اجنحة الاثير وفي امواج البحر وفي الغابات والكهوف وفوق قمم الجبال .

الكلام في كل مكان . فالى اين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟

ايوجد في هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمي اليها ؟

هل يرحمني الله ويمنحني موهبة الطرش فأحيا سعيداً في جنة السكون الابدي ؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشقة اللسان وبلبلة الالسن حيث الكلام لا يباع ولا يشرى ، ولا يعطى ولا يؤخذ ؟

ليت شعري ! أبين سكان الارض من لا يعبد نفسه متكلماً ؟ هل يوجد بين طغمات الخلق من لم يكن فمه مغارة للصوص الألفاظ !

*

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ، ولكنهم انواع وأشكال لا عداد لها .

فهناك طائفة « المستضفعين » الذين يعيشون في المستنقعات النهار بطوله . وعندما يجيء المساء يقتربون من الشواطىء رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والارواح .

وهناك طائفة « المستبعضين » والبعوض من مولدات المستنقعات ايضاً ، وهم الذين يرفرفون حول اذنك بنغمة تافهة رفيعة شيطانية ، سداها النكاية ولحمتها البغضاء .

وهناك طائفة « المستطحنين » وهي طائفة غريبة ، في داخل كل فرد من افرادها حجر يدار بالكحول فيولد جعجعة جهنمية اخفها اثقل مما تحدثه حجارة الرحى .

وهناك طائفة « المستبقرين » وهم الذين يملأون اجوافهم حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة مبطنين الهواء بخوار ألطفه اغلظ من خوار الجاموس .

وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة واجدائها محولين سكينة الدجى الى عويل افرحه أحزن من نعيب البوم .

وهناك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة الا اخشابها فيصرفون الأيام بتجزئتها وتفصيلها ، محدثين بذلك خشخشة اعذبها اضنك مما تحدثه المناشير .

وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من افواههم الفارغة قرقعة الطفها اغلظ من قرقعة الطبول .

وهناك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويمضغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه .

وهناك طائفة « المستهزئين » وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضاً ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجون . والمجون ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التي تحوك الهواء بالهواء ولكنها تظل هي بدون قمصان ولا سراويل .

وهناك طائفة « الزرازير » التي قال عنها الشاعر : لما حام حائمها توهمت انها صارت شواهينا .

وهناك طائفة « الاجراس » وهي التي تدعو الناس الى الهياكل ولكنها لا تدخلها .

وهناك طوائف وعشائر لا تُعدُّ ولا تحصى ولا توصف ، اغربها في عقيدتي طائفة نائمة ولكنها تملأ الفضاء غطيطاً ولكنها لا تدري .

*

والآن ، وقد ابنت بعض « قرفي » واشمئزازي من الكلام والمتكلمين، أراني كالطبيب المعتل او كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وانا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبي قبيل ان يرحمني وينقلني الى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمين ؟

البدائع والطرائف

كنا قد عولنا على اسقاط هذا العنوان من بين مؤلفات جبران للاسباب المذكورة في المقدمة . ولكننا عدنا فاثبتناه نظراً لانطباعه في اذهان الكثير من قراء جبران مقتصرين منه على المواد غير المنشورة في سواه من مؤلفات جبران .

القشور واللباب

ما شربت كأساً علقميّة الا كانت ثمالتها عسلاً .

وما صعدت عقبة حرجة الا بلغت سهلاً اخضر .

وما اضعت صديقاً في ضباب السماء الا وجدته في جلاء الفجر .

وكم مرة سترت ألمي وحرقتي برداء التجلد متوهماً ان في ذلك الأجر والصلاح ، ولكنني لما خلعت الرداء رأيت الألم قد تحوّل الى بهجة والحرقة قد انقلبت برداً وسلاماً .

وكم سرت ورفيقي في عالم الظهور فقلت في نفسي ما احمقه وما أبلده ، غير انني لم ابلغ عالم السر حتى وجدتني الجائر الظالم وألفيته الحكيم الظريف .

وكم سكرت بخمرة الذات فحسبتني وجليسي حملاً وذئباً ، حتى اذا ما صحوت من نشوتي رأيتني بشراً ورأيته بشراً .

انا وانتم ايها الناس مأخوذون بما بان من حالنا ، متعامون عما خفي من حقيقتنا . فان عثر احدنا قلنا هو الساقط ، وان تماهل قلنا هو الخائر التلف ، وان تلعثم قلنا هو الاخرس ، وان تأوه قلنا تلك حشرجة النزع فهو مائت .

انا وانتم مشغوفون بقشور « انا » وسطحيات « انتم » لذلك لا نبصر ما اسرّه الروح الى « انا » وما اخفاه الروح في « انتم » .

وماذا عسى نفعل ونحن بما يساورنا من الغرور غافلون عما فينا من الحق؟

اقول لكم ، وربما كان قولي قناعاً يغشي وجه حقيقتي ، اقول لكم ولنفسي ان ما نراه بأعيننا ليس بأكثر من غمامة تحجب عنا ما يجب ان نشاهده ببصائرنا . وما نسمعه بآذاننا ليس الا طنطنة تشوّش ما يجب ان نستوعبه بقلوبنا . فان رأينا شرطياً يقود رجلاً الى السجن علينا الاّ نجزم في ايهما المجرم . وان رأينا رجلاً مضرجاً بدمه وآخر مخضوب اليدين فمن الحصافة الاّ نحتم في ايهما القاتل وايهما القتيل . وان سمعنا رجلاً ينشد وآخر يندب فلنصبر ريثما نتثبت ايهما الطروب .

لا يا اخي لا تستدل على حقيقة امرىء بما بان منه ، ولا تتخذ قول امرىء او عملاً من اعماله عنواناً لطويته . فربَّ من تستجهله لثقل في لسانه وركاكة في لهجته كان وجدانه منهجاً للفطن وقلبه مهبطاً للوحي . وربَّ من تحتقره لدمامة في وجهه وخساسة في عيشه كان في الارض هبة من هبات السماء وفي الناس نفحة من نفحات الله .

قد تزور قصراً وكوخاً في يوم واحد ، فتخرج من الاول متهيباً ومن الثاني مشفقاً ، ولكن لو استطعت تمزيق ما تحوكه حواسك من الظواهر لتقلص تهيبك وهبط الى مستوى الأسف ، وانبدلت شفقتك وتصاعدت الى مرتبة الاجلال .

وقد تلتقي بين صباحك ومسائك رجلين فيخاطبك الاول وفي صوته اهازيج العاصفة وفي حركاته هول الجيش اما الثاني فيحدثك متخوفاً وجلاً بصوت مرتعش وكلمات متقطعة ، فتعزو العزم والشجاعة الى الاول ، والوهن والجبن الى الثاني ، غير انك لو رأيتهما وقد دعتهما الايام الى لقاء المصاعب ، او الى الاستشهاد في سبيل مبدإ ، لعلمت

ان الوقاحة المبهرجة ليست ببسالة والخجل الصامت ليس بجبانة .

وقد تنظر من نافذة منزلك فترى بين عابري الطريق راهبة تسير يميناً ومومساً تسير شمالاً ، فتقول على الفور : ما انبل هذه وما اقبح تلك ! ولكنك لو اغمضت عينيك واصغيت هنيهة لسمعت صوتاً هامساً في الاثير قائلاً : هذه تنشدني بالصلاة وتلك ترجوني بالألم ، وفي روح كل منهما مظلة لروحي .

وقد تطوف في الارض باحثاً عما تدعوه حضارة وارتقاء ، فتدخل مدينة شاهقة القصور فخمة المعاهد رحبة الشوارع ، والقوم فيها يتسارعون الى هنا وهناك فذا يخترق الارض ، وذاك يحلق في الفضاء ، وذلك يمتشق البرق ، وغيره يستجوب الهواء ، وكلهم بملابس حسنة الهندام ، بديعة الطراز ، كأنهم في عيد او مهرجان .

وبعد ايام يبلغ بك المسير الى مدينة اخرى حقيرة المنازل ضيقة الازقة اذا امطرتها السماء تحولت الى جزر من المدر في بحر من الاوحال . وان شخصت بها الشمس انقلبت غيمة من الغبار . اما سكانها فما برحوا بين الفطرة والبساطة كوتر مسترخ بين طرفي القوس . يسيرون متباطئين ويعملون متماهلين ، وينظرون اليك كأن وراء عيونهم عيوناً تحدق الى شيء بعيد عنك ، فترحل عن بلدهم ماقتاً مشمئزاً قائلاً في سرك : انما الفرق بين ما شهدته في تلك المدينة وما رأيته في هذه لهو كالفرق بين الحياة والاحتضار . فهناك القوة بمدها وهنا الضعف بجزره . هناك الجد ربيع وصيف وهنا الخمول خريف وشتاء . هناك اللجاجة شباب يرقص في بستان وهنا الوهن شيخوخة مستلقية على الرماد .

ولكن لو استطعت النظر بنور الله الى المدينتين لرأيتهما شجرتين متجانستين في حديقة واحدة . وقد يمتد بك التبصر في حقيقتهما فترى ان ما توهمته رقياً في احداهما لم يكن سوى فقاقيع لماعة زائلة . وما حسبته خمولاً في الاخرى كان جوهراً خفياً ثابتاً .

لا ليست الحياة بسطوحها بل بخفاياها ، ولا المرئيات بقشورها بل بلبابها ، ولا الناس بوجوههم بل بقلوبهم .

لا ولا الدين بما تظهره المعابد وتبينه الطقوس والتقاليد ، بل بما يختبىء في النفوس ويتجوهر بالنيات .

لا ولا الفن بما تسمعه بأذنك من نبرات وخفضات اغنية ، او من رنات اجراس الكلام في قصيدة ، او بما تبصره بعينيك من خطوط والوان صورة . بل الفن بتلك المسافات الصامتة المرتعشة التي تجيء بين النبرات والخفضات في الأغنية ، وبما يتسرب اليك بواسطة القصيدة مما بقي ساكتاً هادئاً مستوحشاً في روح الشاعر ، وبما توحيه اليك الصورة فترى وأنت محدق اليها ما هو ابعد واجمل منها .

لا يا أخي ، ليست الأيام والليالي بظواهرها ، وانا ، انا السائر في موكب الأيام والليالي، لست بهذا الكلام الذي أطرحه عليك الا بقدر ما يحمله اليك الكلام من طويتي الساكنة . اذن لا تحسبني جاهلاً قبل ان تفحص ذاتي الخفية ، ولا تتوهمني عبقرياً قبل ان تجردني من ذاتي المقتبسة . لا تقل هو بخيل قابض الكف قبل ان ترى قلبي ، أو هو الكريم الجواد قبل ان تعرف الواعز الى كرمي وجودي . لا تدعني محباً حتى يتجلى لك حبي بكل ما فيه من النور والنار ، ولا تعدني خلياً حتى تلمس جراحي الدامية .

نفسي مثقلة باثمارها

نفسي مثقلة باثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع ؟

اليس بين الناس من صائم رؤوف يفطر على نتاجي ويريحني من اعباء خصبي وغزارتي ؟

نفسي رازحة تحت عبء من التبر واللجين فهل بين الناس من يملأ جيوبه ويخفف عني حملي ؟

نفسي طافحة من خمرة الدهور فهل من ظامىء يسكب ويشرب ويرتوي ؟

هوذا رجل واقف على قارعة الطريق يبسط نحو العابرين يداً مفعمة بالجواهر ويناديهم قائلاً : الا ارحموني وخذوا مني . اشفقوا عليّ وخذوا ما معي . اما الناس فيسيرون ولا يلتفتون .

الا ليته كان شحاذاً متسولاً يمد يداً مرتعشة نحو العابرين ويرجعها فارغة مرتعشة . ليته كان مُقعداً اعمى يمر به الناس ولا يحفلون .

هوذا مثرٍ جواد نصب خيامه بين مجاهل البيداء ولحف الجبل ، يوقد نار القِرى كل ليلة ويبعث عبيده ليرصدوا السبل لعلهم يقودون اليه ضيفاً يقريه ويكرمه ، ولكن السبل بخيلة لا تجود على هباته بمرتزق ، ولا تبعث الى هباته بطالب .

الا ليته كان صعلوكاً منبوذاً !

ليته كان عياراً متشرداً يطوف البلاد وفي يده عكاز وفي كوعه دلو ، فاذا ما جاء المساء جمعته ملتويات الأزقة بزملائه العيارين المتشردين فيجلس بقربهم ويقاسمهم خبز الصدقة !

هوذا ابنة الملك الاكبر قد استيقظت من رقادها وهبت من مضجعها وقامت فتردت بارجوانها وبرفيرها وتزينت بلؤلؤها وياقوتها ونثرت المسك على شعرها وغمست بذوب العنبر اصابعها ثم خرجت الى حديقتها ومشت وقطرات الندى تبلل اطراف ثوبها .

في سكون الليل سارت ابنة الملك الاكبر في جنتها تبحث عن حبيبها . ولكن لم يكن في مملكة ابيها من يحبها .

الا ليتها كانت ابنة زراع ترعى اغنام ابيها في الاودية وتعود مساء الى كوخ ابيها وعلى قدميها غبار المنعكفات وبين طيات ثوبها رائحة الكروم . حتى اذا ما جن الليل ونام سكان الحي اختلست خطواتها الى حيث يترقبها حبيبها .

ليتها كانت راهبة في الدير تحرق قلبها بخوراً فينشر الهواء عطر قلبها . وتوقد روحها شمعاً فيحمل الاثير نور روحها . وتركع مصلية فتحمل اشباح الخفاء صلواتها الى خزائن الزمن حيث تصان صلوات المتعبدين بجانب حرقة المحبين وهواجس المستوحدين !

ليتها كانت عجوزاً مسنة تجلس مستدفئة في اشعة الشمس بين تقاسموا صباها ، فذاك خير من ان تكون ابنة الملك الاكبر وليس في مملكة ابيها من يأكل قلبها خبزاً ويشرب دمها خمراً !

*

نفسي مثقلة باثمارها فهل في الارض جائع يجني ويأكل ويشبع ؟

نفسي طافحة بخمرها فهل من ظامىء يسكب ويشرب ويرتوي ؟

الا ليتني كنت شجرة لا تزهر ، ولا تثمر ، فألم الخصب امرّ من ألم العقم ، واوجاع ميسور لا يؤخذ منه اشد هولاً من قنوط فقير لا يُرزق .

ليتني كنت بئراً جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من ان اكون ينبوع ماء حي والظامئون يجتازونني ولا يستقون .

ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من ان اكون قيثارة فضية الأوتار في منزلٍ ربه مبتور الأصابع وأهله طرشان !

حفنة من رمال الشاطىء

كآبة الحب تترنم . و كآبة المعرفة تتكلم . و كآبة الرغائب تهمس . و كآبة الفقر تندب . ولكن هناك كآبة اعمق من الحب . وانبل من المعرفة . واقوى من الرغائب . وامرُّ من الفقر . غير انها خرساء لا صوت لها اما عيناها فمشعشعتان كالنجوم .

عندما تشكو مصاباً لجارك تهبه جزءاً من قلبك . فان كان كبير النفس شكرك . وان كان صغيرها احتقرك .

ليس التقدم بتحسين ما كان بل بالسير نحو ما سيكون .

المسكنة نقاب يخفي ملامح الكبرياء . والدعوى قناع يغشي وجه البـلاء .

عندما يجوع المتوحش يقطف ثمرة من شجرة ويأكلها ، وعندما يجوع المتمدن يشتري ثمرة ممن اشتراهـا ممن اشتراها ممن قطفها من الشجرة .

الفن خطوة من المعروف الظاهر نحو المجهول الخفي .

بعض الناس يستحثونني على الامانة اليهم ليتمتعوا بلذة السماح عني

ما ادركت طوية امرىء الا حسبني مديوناً له .

تتنفس الارض فنولد ثم تستريح انفاسها فنموت .

عين الانسان مجهر تبين له الدنيا اكبر مما هي حقيقة .

انا بريء من قوم يحسبون القحة شجاعة واللين جبانة .

وانا بريء ممن يتوهم الثرثرة معرفة والصمت جهالة والتصنع فناً .

قد يكون في استصعابنا الأمر اسهل السبل اليه .

يقولون لي : اذا رأيت عبداً نائماً فلا تنبهه لعله يحلم بحريته . واقول لهم : اذا رأيت عبداً نائماً نبهته وحدثته عن الحرية .

المعاكسة ادنى مراتب الذكاء .

الجميل يأسرنا اما الأجمل فيعتقنا حتى ومن ذاته .

الحماسة بركان لا تنبت على قمته اعشاب التردد .

يظل النهر جاداً نحو البحر ، انكسر دولاب المطحنة ام لم ينكسر .

صنع الاديب من الفكر والعاطفة ثم وهب الكلام . أما الباحث فقد صنع من الكلام ثم اعطي قليلاً من الفكر والعاطفة .

تأكل مسرعاً وتمشي متباطئاً ، فهلا أكلت برجلك ومشيت على كفيك !

ما تعاظم فرحك أو حزنك الا صغرت الدنيا في عينيك .

العلم يستنبت بذورك ولا يلقي بك بذراً .

ما ابغضت الا كان البغض سلاحاً ادافع به عن نفسي ، ولكن لو لم اكن ضعيفاً لما اتخذت هذا النوع من السلاح .

لو علم جد جد يسوع ما كان مختبئاً في شخصه لوقف خاشعاً متهيباً امام نفسه .

الحب سعادة ترتعش .

يحسبوني حاد النظر ثاقبه لانني اراهم من خلال شبكة الغربال .

لم أشعر بـألم الوحشة حتى مـدح الناس عيوبي الثرثارة وطعنوا في حسناتي الخرساء .

بين الناس قتلة لم يسفكوا دمـاً قط ، ولصوص لم يسرقوا شيئاً البتة ، وكذبة لم يقولوا الا الصحيح .

الحقيقـة التي تحتاج الى برهان هي نصف حقيقة .

الا فابعدوني عن الحكمة التي لا تبكي وعن الفلسفة التي لا تضحك وعن العظمة التي لا تحني رأسها امام الاطفال .

ايها الكون العاقل ، المحجوب بظواهر الكائنات ، الموجود بالكائنات وفي الكائنات وللكائنات ، انت تسمعني لانك حاضري ذاتي . وانك تراني لأنـك بصيرة كل شيء حي . القِ في روحي بـذرة من بـذور حكمتك لتنبت نصبة في غابتك وتعطي ثمراً من اثمارك . آمين .

سفينة في ضباب

هذا حديث رجل جمعنا في منزله المنفرد القائم على كتف وادي قاديشا في ليلة مغمورة بالثلوج مرتعشة بالاهوية .

قال محدثنا وهو ينبش رماد الموقد بطرف قضيب كان بيده :

تريدون ، يا رفاقي ، ان أعلن لكم سر كآبتي .

تريدون ان احدثكم عن المأساة التي تعيد الذكرى تمثيلها في صدري كل يوم وكل ليلة .

لقد مللتم سكوتي وتكتمي . وضجرتم من تنهدي وتململي . وقال بعضكم لبعض : اذا كان لا يدخلنا هذا الرجل الى هيكل اوجاعه فكيف نستطيع الدخول الى بيت مودته ؟

انتم مصيبون يا رفاقي . فمن لا يساهمنا الألم لن يشركنا في شيء آخر .

فاسمعوا اذن حكايتي . اسمعوا ولا تكونوا مشفقين ، فالشفقة تجوز على الضعفاء وانا لم أزل قوياً بكآبتي .

منذ فجر شبابي وانا ارى في احلام يقظتي واحلام نومي طيف امرأة غريبة الشكل والمزايا . كنت اراها في ليالي الوحدة واقفة قرب مضجعي . وكنت اسمع صوتها في السكينة . وكنت في بعض الاحيان

أغمض عيني واشعر بملامس اصابعها على جبهتي فافتح عيني واهبُّ مذعوراً مصغياً بكل ما بي من المسامع الى همس اللاشيء .

وكنت اقول لذاتي : هل تطوَّح بي خيالي حتى ضعت في الضباب؟ هل صنعت من الخرة احلامي امرأة جميلة الوجه عذبة الصوت لينة الملامس لتأخذ مكان امرأة من الهيولى؟ هل خولطت بعقلي فاتخذت من ظلال عقلي رفيقة احبها واستأنس بها واركن اليها وابتعد عن الناس لاقترب منها واغلق عيني ومسامعي عن كل ما في الحياة من الصور والاصوات لارى صورتها واسمع صوتها ؟ امجنون انا يا ترى ؟ امجنون لم يكتف بالانصراف الى العزلة بل ابتدع له من اشباح العزلة رفيقة وقرينة ؟

قلت « قرينة » وانتم تستغربون هذه اللفظة ، ولكن هناك بعض الاختبارات التي نستغربها بل وننكرها لانها تظهر لنا بمظاهر المستحيل ولكن استغرابنا ونكراننا لا يمحوان حقيقتها في نفوسنا . لقد كانت تلك المرأة الخيالية قرينة لي ، تساهمني وتبادلني كل ما في الحياة من الميول والمنازع والافراح والرغائب ، فلم استيقظ صباحاً الا رأيتها متكئة على مساند سريري وهي تنظر اليَّ بعينين يملأهما طهر الطفولة وعطف الأمومة . ولم احاول عملاً الا ساعدتني على تحقيقه . ولم اجلس الى مائدة الا جلست قبالتي تحدثني وتبادلني الآراء والأفكار . وما جاء مساء الا اقتربت مني قائلة : قم بنا نسر بين التلول والمنحدرات ، كفانا الاقامة في هذا المنزل . فأترك اذ ذاك عملي واسير قابضاً على اصابعها ، حتى اذا ما بلغنا البرية المتشحة بنقاب المساء المغمورة

بسحر السكون نجلس جنباً الى جنب على صخرة عالية محدقين الى الشفق البعيد . فكانت تارة تومىء الى الغيوم المذهبة باشعة الغروب وطوراً تسترعي سمعي الى تغريد الطائر يبعث صوته تسبيحة شكر وطمأنينة قبيل ان يلتجىء الى الاغصان للمبيت .

وكم مرّة دخلت عليّ وانا اشتغل في غرفتي قلقاً مضطرباً فلا تلمحها عيني حتى يتحول قلقي الى الهدوء واضطرابي الى الائتلاف والاستئناس .

وكم لقيت الناس وفي روحي جيش يزحف متمرداً على ما اكرهه في نفوسهم ، ولكنني ما تبينت وجهها بين وجوههم الا انقلبت الزوبعة في باطني الى انغام علوية .

وكم جلست منفرداً وفي قلبي سيف من الم الحياة ومتاعبها وحول عنقي سلاسل من مشاكل الوجود ومعضلاته ، ثم ألتفت فأراها واقفة امامي محدقة اليّ بعينين تفيضان نوراً وبهاء فتنقشع غيومي ويتهلل قلبي وتبدو الحياة لبصيرتي جنة افراح ومسرات .

وأنتم تسألون ، يا رفاقي ، ما اذا كنت مقتنعاً بهذه الحالة الشاذة الغريبة – تسألون ما اذا كان المرء وهو في عنفوان شبابه يستطيع الاكتفاء بما تدعونه وهماً وخيالاً وحلماً بل وعلة نفسية ؟

اقول لكم ان الاعوام التي صرفتها في تلك الحالة لهي زبدة ما عرفته في الحياة من الجمال والسعادة واللذة والطمأنينة . اقول لكم انني كنت ورفيقتي الأثيرية فكرة مطلقة مجردة تطوف في نور الشمس وتطفو على وجه البحار وتسعى في الليالي المقمرة وتتهلل باغانٍ ما سمعتها أذن وتقف امام مشاهد ما رأتها عين . ان الحياة ، كل الحياة ،

هي في ما نختبره بأرواحنا . والوجود ، كل الوجود ، هو في ما نعرفه ونتحققه فنبتهج به او نتوجع لأجله . وانا قد اختبرت امراً بروحي ، اختبرته كل يوم وكل ليلة حتى بلغت الثلاثين من عمري .

ليتني لم ابلغ الثلاثين . ليتني مت الف مرّة ومرة قبل ان ابلغ تلك السنة التي سلبتني لباب حياتي واستنزفت دماء قلبي واوقفتني امام الأيام والليالي شجرة يابسة عارية مستوحدة فلا ترقص اغصانها لأغاني الهواء ولا تحوك الأطيار اعشاشها بين أوراقها وازهارها .

وسكت محدثنا دقيقة وقد الوى رأسه وأغمض عينيه وارخى زنديه الى جانب مقعده فبان كأنه اليأس مجسماً . اما نحن فبقينا صامتين مترقبين استماع تتمة حديثه . ثم فتح أجفانه وبصوت متقطع خارج من أعماق كيان مكلوم قال :

تذكرون ، يا رفاقي ، انه منذ عشرين سنة بعثني حاكم هذا الجبل بمهمة علمية الى مدينة البندقية ، واصحبني برسالة الى محافظ تلك المدينة الذي كان قد عرفه في القسطنطينية .

تركت لبنان وابحرت على سفينة ايطالية وقد كان ذلك في شهر نيسان وروح الربيع ترتعش بين ثنايا الهواء وتنثني مع امواج البحر وتتمثل بصور جميلة متقلبة في الغيوم البيضاء المتلبدة فوق الآفاق . كيف أصف لكم تلك الايام وتلك الليالي التي صرفتها على ظهر السفينة ؟ ان قوة الكلام المتعارف بين البشر لا تتجاوز ما تحويه مدارك البشر وما يشعرون به . وفي الروح ما هو أبعد من الادراك وادق من الشعور فكيف أرسمها لكم بالكلام ؟

لقد كانت تلك السنون التي صرفتها مع رفيقتي الاثيرية ممنطقة بالأنس والالفة مغمورة بالسكينة والرضى فلم يدر في خلدي ان الالم رابض لي وراء حجب سعادتي وان المرارة ثمالة راكدة في اعماق كأسي . لا لم اخش قط ذبول زهرة نبتت فوق الغيوم واضمحلال انشودة ترنمت بها عرائس الفجر . ولما تركت هذه التلول والاودية كانت رفيقتي جالسة بقربي في المركبة التي حملتني الى الساحل . وفي الثلاثة الأيام التي قضيتها في بيروت قبيل سفري كانت قرينتي تذهب حيثما أذهب وتقف عندما اقف ، فلم اجتمع بصديق الا رأيتها تبتسم له ، ولم ازر معهداً الا شعرت بيدها قابضة على يدي ، ولم أجلس مساء في شرفة النزل مصغياً الى اصوات المدينة الا شاركتني في التأمل وساهمتني الفكر . ولكن لما فصلني الزورق عن ميناء بيروت ، في الدقيقة التي وطئت فيها ظهر السفينة ، شعرت بتغير في فضاء روحي ، شعرت بيد خفية قوية تتمسك بساعدي وسمعت صوتاً عميقاً يهمس في اذني قائلاً : ارجع ، ارجع من حيث اتيت . انزل الى الزورق وعد الى شواطىء بلادك قبل ان تبحر السفينة .

وابحرت السفينة وأنا على ظهرها أشبه شيء بعصفور بين مخالب باشق يسبح محلقاً في الخلاء . ولما جاء المساء وقد انحجبت قمم لبنان وراء ضباب البحر رأيتني واقفاً وحدي على مقدمة السفينة وفتاة احلامي المرأة التي أحبها قلبي ، المرأة التي رافقت شبابي ، لم تكن معي . الصبية العذبة التي كنت ارى وجهها كلما حدقت الى الفضاء واسمع صوتها كلما اصغيت الى السكينة والمس يدها كلما مددت يدي الى

الأمام ، لم تكن على ظهر تلك السفينة . ولاول مرة ، لأول مرة ، وجدتني واقفاً وحدي أمام الليل والبحر والفضاء .

وبقيت على هذه الحالة انتقل من مكان الى مكان منادياً رفيقتي في قلبي ناظراً الى الامواج المتقلبة لعلي أرى وجهها في بياض الزبد .

وعندما انتصف الليل وقد التجأ ركاب السفينة الى مراقدهم وبقيت انا وحدي هائماً ضائعاً مضطرباً ، التفتُّ بغتة فرأيتها واقفة في الضباب على بعد بضع خطوات فانتفضت مرتعشاً ومددت يدي اليها هاتفاً : لمَ تركتني ؟ .. لمَ تركتني في وحدتي ؟ الى اين ذهبت ؟ اين كنت يا رفيقتي ؟ اقتربي ، اقتربي مني ولا تتركيني بعد الآن .

فلم تدنُ مني ، بل ظلت جامدة في مكانها ثم بدت على وجهها سيماء توجع ولهفة ما رأيت أهول منهما في حياتي ، وبصوت خافت ضئيل قالت : جئت من اعماق اللجة لأراك لمحة ، لمحة واحدة . وها انا راجعة الى اعماق اللجة . ادخل مخدعك وارقد واحلم .

قالت هذه الكلمات وامتزجت بالضباب واضمحلت . فطفقت اناديها بلجاجة الطفل الجائع وابسط ذراعي الى كل ناحية فلا اقبض الا على الهواء المثقل بندى الليل .

دخلت مخدعي وفي روحي عناصر تتقلب وتتصارع وتهبط وتتصاعد ، فكنت في جوف تلك السفينة سفينة اخرى في بحر من اليأس والالتباس . وللغرابة انني لم القِ رأسي على وسائد مضجعي حتى احسست بثقل في اجفاني وبتخدر في جسدي فنمت نوماً عميقاً حتى الصباح . ولقد رأيت في نومي حلماً . رأيت رفيقتي مصلوبة على شجرة تفاح مزهرة

وقطرات الدماء تسيل من كفيها وقدميها على غصني الشجرة وعمدها ثم تنسكب على الاعشاب وتمتزج بازهار الشجرة المنثورة .

وظلت السفينة تسعى الايامَ والليالي بين اللجتين وانا على ظهرها لا أدري ما اذا كنت بشراً مسافراً الى بلد بعيد بهمة بشرية ام شبحاً تائهاً في فضاء خالٍ الا من الضباب ، فلم اشعر بقرب رفيقتي ولم المح وجهها في اليقظة او في المنام ، وباطلاً كنت انادي مصلياً مبتهلاً للقوى الخفية لتسمعني مقطعاً من مقاطع صوتها أو لتريني ظلاً من ظلالها أو تجعلني اشعر بملامس أصابعها على جبهتي .

ومرّ اربعة عشر يوماً وانا في هذه الحالة . وعند ظهيرة اليوم الخامس عشر ظهرت عن بعد شواطىء ايطاليا ، وفي مساء ذلك النهار دخلت السفينة ميناء البندقية وجاء قوم بزوارق مطليّة بالوان ورسوم بهجة لينقلوا الركاب وامتعتهم الى المدينة .

أنتم تعلمون ، يا رفاقي ، ان مدينة البندقية قائمة على عشرات من الجزر الصغيرة المتقاربة ، فشوارعها ترع ومنازلها وقصورها مبنية في الماء ، والزوارق هناك تقوم مقام المركبات .

فلما نزلت من السفينة الى الزورق سألني النوتي قائلاً :

الى اين يريد سيدي ان يذهب ؟

فلما ذكرت اسم محافظ المدينة نظر اليّ باهتمام واحترام واخذ يضرب الماء بمقذافه .

سار بي الزورق وكان قدجاء الليل والقى رداءه على المدينة فظهرت الانوار في نوافذ القصور والمعابد والمعاهد فانعكست اشعتها في الماء

متلألئة مرتعشة فبانت البندقية كحلم شاعر يفتنه الغريب من المشاهد والوهمي من الاماكن . ولم يبلغ بي الزورق الى منعطف اول ترعة حتى سمعت رنين اجراس لا عداد لها تملأ الفضاء بأنات محزنة متقطعة هائلة مخيفة . ومع انني كنت في غيبوبة نفسية تفصلني عن كل المظاهر الخارجية فقد كانت تلك الطنات النحاسية تخترق لوح صدري كالمسامير.

ووقف الزورق بجانب سلم حجري تتصاعد درجاته من الماء الى الرصيف ، فالتفت البحري الي واشار بيده نحو قصر قائم في وسط حديقة وقال : هذا هو المكان . فصعدت من الزورق وسرت مبطئاً نحو المنزل والبحري يتبعني حاملاً حقيبتي على كتفه ، حتى اذا ما بلغت باب المنزل ناولته اجرته وصرفته ثم طرقت الباب ففتح لي واذا انا امام رهط من الخدم مطأطئي الرؤوس وهم يبكون وينوحون ويتأوهون بأصوات منخفضة ، فاستغربت هذا المشهد واحترت بأمري .

وبعد هنيهة تقدم مني خادم كهل ونظر اليّ من وراء اجفان مقروحة وسألني متنهداً : ماذا يريد سيدي ؟ فقلت : اليس هذا منزل محافظ المدينة ؟ فحنى رأسه ايجاباً .

فأخرجت ، إذ ذاك ، الرسالة التي أصحبني بها حاكم لبنان وناولته اياها فنظر في عنوانها صامتاً ثم راح متمهلاً نحو باب في مؤخر ذلك الدهليز .

جرى كل ذلك وأنا بدون فكر ولا ارادة . ثم دنوت من خادمة صبية وسألتها عن سبب حزنهم ونواحهم فاجابت متوجعة : عجباً ، ألم تسمع ان ابنة المحافظ قد ماتت اليوم ؟

ولم ترد على هـذه الكلمات بل غمرت وجهها بكفهـا واستسلمت الى البكاء .

تأملوا ، يا رفاقي ، حالة رجـل قطع البحار وهو كفكرة سديمية ملتبسة أضاعها جبار من جبابرة الفضاء بين الأمواج المزبـدة والضباب الرمادي . صوروا لنفوسكم حالة فتى سار أسبوعين بين عويـل اليأس وصراخ اللجة ، ولما بلغ نهاية الطريق وجد نفسه واقفـاً في باب منزل تمشي في جنباته أشبـاح التفجع وتملأ قرانيه أنات اللوعـة . صوروا لنفوسكم ، يا رفـــاقي ، رجلاً غريباً يطلب الضيافة في قصر تخيم عليه أجنحة الموت .

وعاد الخادم الذي حمل الرسالة الى سيده وانحنى قـائلاً : تفضـل يا سيدي فالمحافظ ينتظرك .

قال هذا ومشى أمامي فاتبعته حتى اذا ما بلغنا باباً في نهاية الممشى أومأ اليّ ان ادخل فدخلت قاعة واسعة عالية السقف منارة بالشموع وقد جلس فيها بعض الوجهاء والكهان وكلهم في سكوت عميق . فلم أكد أخطو بضع خطوات حتى قام من صدر القاعة شيخ ذو لحية بيضاء وقد حنت ظهره الأشجان وتلمت وجهه الأوجاع وتقدم نحوي وأخذ بيدي قائلاً : يعز عليّ ان تأتي من بلاد بعيدة وتجدنا مصابين بأحب من لدينا . ولكنني أرجو أن لا يكون مصابنـا حائلاً دون إتمـام الغرض الذي جئتنا من أجله ، فكن مطمئن البال يا ولدي .

فشكرت له عطفه مظهراً أسفي لمصابه ببعض الألفاظ المشوشة .

وقادني الشيخ الى كرسي بجانب مقعده فجلست صامتاً مع الجلاس

الصامتين أنظر خلسة الى وجوههم الكئيبة وأسمع تأوههم فتتولد في صدري كتلات من الضيم واللهفة . وبعد ساعة انصرف القوم الواحد تلو الآخر ولم يبقَ سواي مع الوالد الحزين في تلك القاعة الخرساء، فوقفت إذ ذاك وتقدمت اليه قائلاً : اسمح لي يا سيدي بالانصراف . فقال ممانعاً : لا يا صديقي . لا تذهب . كن ضيفنا ان كان بامكانك احتمال النظر الى كآبتنا واستماع أنة لوعتنا . فأخجلني كلامه وحنيت رأسي امتثالاً . ثم عاد وقال : انتم اللبنانيين أبرُّ الناس بالضيف فهلا بقيت عندنا لنريك ولو قليلاً مما يلقاه الغريب في بلادكم !

وبعد هنيهة قرع الشيخ المنكوب جرساً فضياً فدخل علينا حاجب بملابس مزركشة مقصبة فقال له الشيخ مشيراً إليَّ : سر بضيفنا الى الغرفة الشرقية وانظر بشأن مأكله ومشربه وتولَّ بنفسك شؤونه وكن ساهراً على راحته .

فقادني الحاجب الى غرفة رحبة بديعة الهندسة فخمة الرياش تغشي جدرانها الرسوم والمنسوجات الحريرية في وسطها سرير نفيس مغطى باللحف والمساند المطرزة .

تركني الحاجب فارتميت على مقعد افكر بنفسي ومحيطي وبغربتي ووحدتي ومآتي أول ساعة صرفتها في بلاد قصية عن بلادي .

وعاد الحاجب يحمل طبقاً عليه الطعام والشراب ووضعه أمامي فأكلت قليلاً ولكن بدون رغبة ثم صرفت الحاجب .

ومرَّت ساعتان وانا أتمشى تارة في تلك الغرفة وطوراً أقف في جوانب احدى نوافذها محدقاً الى الفضاء مصغياً الى اصوات البحارة وخفق

مقاذيفهم في الماء حتى إذا ما نهكني السهر وتضعضعت فكرتي بين مظاهر الحياة وخفاياها ارتميت على السرير مستسلماً الى غيبوبة تتآلف فيها سكرة المجوع وصحو اليقظة ويتقلب فيها التذكار والنسيان مثلما يتناوب الشواطيء مد البحر وجزره ، فكنت كساحة حرب صامتة تتناضل فيها فيالق صامتة ويجندل الموت فرسانها فيقضون صامتين .

لا ، لا أدري ، يا رفاقي ، كم ساعة صرفت وانا في هذه الحالة . ان في الحياة فسحات تجتازها أرواحنا ولكننا لا نستطيع ان نقيسها بالمقاييس الزمنية التي ابتدعتها فكرة الانسان .

لا ، لا أعرف كم ساعة بقيت في هذه الحالة . كل ما عرفته اذ ذاك وكل ما أعرفه الآن هو انني بينما كنت في تلك الحالة الملتبسة شعرت بكيان حي واقف بقرب سريري ، شعرت بقوة ترتعش في فضاء الغرفة ، شعرت بذات اثيرية تناديني ولكن بدون صوت وتستفزني ولكن بدون اشارة ، فنهضت على قدمي وخرجت من الغرفة الى الدهليز مدفوعاً مأموراً مجذوباً بعامل قاهر ضابط كلي . سرت ولكن بغير ارادتي ، سرت كمن يسير وهو نائم ، سرت في عالم مجرد عما نحسبه زمناً ومسافة ، حتى اذا ما بلغت نهاية الدهليز دخلت قاعة كبرى في وسطها نعش تنيره كوكبتان من الشموع وتحيط به الأزهار . فتقدمت وركعت بجانبه ونظرت ، نظرت فرأيت وجه رفيقتي ، رأيت وجه رفيقة أحلامي وراء نقاب الموت . رأيت المرأة التي أحببتها حباً فوق الحب . رأيتها جثة هامدة بيضاء بأثواب بيضاء بين أزهار بيضاء تخيم عليها سكينة الدهور ورهبة الازل .

يا إلهي ، يا إله الحب والحياة والموت ، أنت الذي كونت أرواحنا ثم سيرتها في هذه الانوار وهذه الظلمات . أنت الذي فطرت قلوبنا ثم جعلتها تنبض بالأمـل والألم . أنت ، أنت الذي أريتني رفيقتي جسداً بارداً . انت الذي قـدتني من أرض الى أرض لتظهر لي مراد الموت بالحياة ومشيئة الوجع بالفرح . انت الذي انبتّ في صحراء وحدتي وانفرادي زنبقة بيضاء ثم سيرتني الى واد بعيد لتبينها لي زنبقة ذابلة ذاوية فانية !

نعم ، يا رفاقي ، يا رفاق وحشتي واغترابي ، ان الله قد شاء فسقاني الكأس العلقمية . لتكن مشيئة الله . نحن البشر ، نحن الذرات المرتعشة في خلاء لا حد له ولا مدى ، نحن لا نستطيع سوى الخضوع والامتثال . فان أحببنا فحبنا ليس منا وليس لنا . وإن سررنا فسرورنا ليس فينا بل في الحياة نفسها . وإن تألمنا فالألم ليس بكلومنا بل باحشاء الطبيعة بأسرها.

لم اقصّ عليكم حكايتي شاكياً . ان من يشكو يشك في الحياة وأنا من المؤمنين أؤمن بصلاحية هذه المرارة التي تمازج كل رشفة أرتشفها من كؤوس الليالي . أؤمن بجمال هذه المسامير التي تخترق صدري . أؤمن برأفة هذه الاصابع الحديدية التي تمزق غشاء قلبي .

هـذه حكايتي فكيف أصل الى نهايتها وهي بدون نهاية ؟ لقد بقيت راكعاً أمام نعش الصبية التي أحببتها في احلامي محدقاً الى وجهها حتى وضع الفجر يده على بلور النوافذ ، فقمت اذ ذاك وعدت الى غرفتي متوكئاً على أوجاع الانسانية منحنياً تحت اعباء الأبدية .

وبعـد ثلاثة أسابيع تركت البندقية ورجعت الى لبنان رجوع من صرف الف جيل في أعماق الدهر ، رجعت رجوع كل لبناني من غربة الى غربة.

سامحوني ، يا رفاقي ، فقد أطلت حديثي . سامحوني !



أبو الطيب المتنبي

بريشة جبران خليل جبران

المراحل السبع

شجبت نفسي سبع مرات : المرة الاولى لما حاولت الحصول على الرفعة عن طريق الضعة . والمرة الثانية لمـــا عرجت امام المقعدين . والمرة الثالثة لمـا خيرت بين الصعب والهين فاختـارت الهين . والمرة الرابعة لما اخطأت فتعزت بخطإ غيرها . والمرة الخامسة لمـا تجلدت عن ضعف وعزت جلدها الى القوة . والمرة السادسة لما لمت اذيالها عن اوحال الحيـاة . والمرة السابعة لمـا وقفت مرتلة امام الله وحسبت الترتيـل فضيلة فيها .

وعظتني نفسي

وعظتني نفسي فعلمتني حب ما يمقته الناس ومصافاة من يضاغنونه وابانت لي ان الحب ليس بميزة في المحب بل في المحبوب . وقبل ان تعظني نفسي كان الحب بي خيطاً دقيقاً مشدوداً بين وتدين متقاربين ، اما الآن فقد تحول الى هالة أولها آخرها وآخرها اولها تحيط بكل كائن وتتوسع ببطء لتضم كل ما سيكون .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ان أرى الجمـال المحجوب بالشكل واللون والبشرة ، وأن أحـدق متبصراً بما يعده الناس شناعة حتى يبدو لي حسناً . وقبل ان تعظني نفسي كنت ارى الجمال شعلات مرتعشة بين اعمدة من الدخان واضمحل فلم اعد ارى سوى ما يشتعل .

*

وعظتني نفسي فعلمتني الاصغاء الى الاصوات التي لا تولدها الالسنة ولا تضج بها الحناجر . وقبل ان تعظني نفسي كنت كليـــل المسامع مريضها ، لا اعي سوى الجلبة والصياح ، اما الآن فقد صرت اتوجس بالسكينة فاسمع أجواقها منشدة اغاني الدهور ، مرتلة تسابيح الفضاء ، معلنة اسرار الغيب .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ان اشرب مما لا يعصر ولا يسكب بكؤوس لا ترفع بالايدي ولا تلمس بالشفاه . وقبل ان تعظني نفسي كان عطشي شرارة ضئيلة في رابية من رماد اخمدها بغبة من الغدير او برشفة من جرن المعصرة . اما الآن فقد صار شوقي كأسي ، وغلتي شرابي ، ووحدتي نشوتي . وأنا لا ولن ارتوي . ولكن في هذه الحرقة التي لا تنطفىء مسرة لا تزول .

*

وعظتني نفسي فعلمتني لمس ما لم يتجسد ولم يتبلور ، وافهمتني ان المحسوس نصف المعقول . وان ما نقبض عليه بعض ما نرغب فيه . وقبل ان تعظني نفسي كنت اكتفي بالحار ان كنت بارداً . والبارد ان كنت حاراً . وباحدهما ان كنت فاتراً . اما الآن فقد انتثرت ملامسي المنكمشة وانقلبت ضباباً دقيقاً يخترق كل ما ظهر من الوجود ليمتزج بما خفي منه .

*

وعظتني نفسي فعلمتني استنشاق ما لا تبثه الرياحين ولا تنشره المجامر . وقبل ان تعظني نفسي كنت ان اشتهيت عطراً طلبته من البساتين او من القوارير او المباخر . أما الآن فقد صرت اشم ما لا يحترق ولا يهرق . وأملأ صدري من انفاس زكية لم تمر بجنة من جنات هذا العالم ولم تحملها نسمة من نسمات هذا الفضاء .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ان أقول « لبيك » عندمـا يناديني المجهول والخطر . وقبـل ان تعظني نفسي كنت لا انهض الا لصوت منـاد عرفته . ولا اسير الا على سبل خبرتها فاستهونتها . اما الآن فقد اصبح المعلوم مطية اركبهـا نحو المجهول ، والسهل سلمـاً أتسلق درجاته لأبلغ الخطر .

*

وعظتني نفسي فعلمتني الا أقيس الزمن بقـولي : كان بالأمس وسيكون غداً . وقبـل أن تعظني نفسي كنت اتوهم المـاضي عهداً لا يرد والآتي عصراً لن اصل اليه . اما الآن فقـد عرفت ان في الهنيهـة الحاضرة كل الزمن بكل ما في الزمن مما يرجى وينجز ويتحقق .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ألا أحدّ المكان بقولي : هنا وهناك وهنالك . وقبـل ان تعظني نفسي كنت اذا مـا صرت في موضـع في الارض ظننتني بعيداً عن كل موضع آخر . اما الآن فقد علمت ان مكاناً احل فيه هو كل مكان . وان فسحة اشغلها هي كل المسافات .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ان اسهر وسكان الحي راقدون . وان انام وهم منتبهون . وقبل ان تعظني نفسي كنت لا أرى أحلامهم في هجعتي ولا يرصدون أحلامي في غفلتهم . أما الآن فلا أسبح مرفرفاً في منامي الا وهم يرقبونني ولا يطيرون في احلامهم الا وفرحت بانعتاقهم .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ان لا اطرب لمديح ولا اجزع لمذمة . وقبل ان تعظني نفسي كنت اظل مرتاباً في قيمة اعمالي وقدرها حتى تبعث اليها الأيام بمن يقرظها أو يهجوها . أما الآن فقد عرفت ان الاشجار تزهر في الربيع وتثمر في الصيف ولا مطمع لها بالثناء . وتنثر أوراقها في الخريف وتتعرى في الشتاء ولا تخشى الملامة .

*

وعظتني نفسي فعلمتني واثبتت لي انني لست بأرفع من الصعاليك ، ولا ادنى من الجبابرة . وقبل ان تعظني نفسي كنت احسب الناس رجلين : رجلاً ضعيفاً ارق له أو ازدري به ، ورجلاً قوياً اتبعه او اتمرد عليه . امـا الآن فقد علمت انني كونت فرداً بمـا كون البشر منـه جماعة . فعناصري عناصرهم . وطويتي طويتهم . ومنازعي منازعهم . ومحجتي محجتهم . فان اذنبوا فأنا المذنب . وان احسنوا عملاً فاخرت بعملهم . وان نهضوا نهضت واياهم . وان تقاعدوا تقاعدت معهم .

*

وعظتني نفسي فعلمتني ان السراج الذي احمله ليس لي ، والاغنية التي انشدها لم تتكون في أحشائي . فانا وان سرت بالنور لست بالنور ، وانا وان كنت عوداً مشدود الاوتار فلست بالعوّاد .

*

وعظتني نفسي يا أخي وعلمتني . ولقـد وعظتك نفسك وعلمتك . فانت وانا متشابهان متضارعان . وما الفرق بيننا سوى انني اتكلم عما بي وفي كلامي شيء من اللجاجة . وأنت تكتم مـا بك وفي تكتمك شكل من الفضيلة .

لكم لبنانكم ولي لبناني

لكم لبنانكم ولي لبناني .

لكم لبنانكم ومعضلاته ، ولي لبناني وجماله .

لكم لبنانكم بكل ما فيه من الاغراض والمنازع ، ولي لبناني بما فيه من الاحلام والأماني .

لكم لبنانكم فاقنعوا به ، ولي لبناني وأنا لا أقنع بغير المجرد المطلق .

لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلها الايام ، أما لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو ازرقاق السماء .

لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، اما لبناني فاودية هادئة سحرية تتموج في جنباتها رنات الأجراس واغاني السواقي .

لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب ، اما لبناني فصلاة مجنحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعاة قطعانهم الى المروج وتتصاعد مساء عندما يعود الفلاحون من الحقول والكروم .

لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها ، اما لبناني فجبل رهيب وديع جالس بين البحر والسهول جلوس شاعر بين الأبدية والأبدية .

لبنانكم حيلة يستخدمها الثعلب عندما يلتقي الضبع والضبع حينما يجتمع بالذئب ، اما لبناني فتذكارات تعيد على مسمعي أهازيج الفتيات في الليالي المقمرة واغاني الصبايا بين البيادر والمعاصر .

لبنانكم مربعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش ، أما لبناني فمعبد ادخله بالروح عندما أمل النظر الى وجه هذه المدنية السائرة على الدواليب .

لبنانكم رجلان : رجل يؤدي المكوس ورجل يقبضها ، أما لبناني فرجل فرد متكىء على ساعده في ظلال الارز وهو منصرف عن كل شيء سوى الله ونور الشمس .

لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة ، أما لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الأرض في اذن الفضاء .

لبنانكم موظفون وعمال ومديرون ، أما لبناني فتأهب الشباب وعزم الكهولة وحكمة الشيخوخة .

لبنانكم وفود ولجان ، أما لبناني فمجالس حول المواقد في ليال تغمرها هيبة العواصف ويجللها طهر الثلوج .

لبنانكم طوائف واحزاب ، أما لبناني فصبية يتسلقون الصخور ويركضون مع الجداول ويقذفون الأكر في الساحات .

لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات ، أما لبناني فتغريد الشحارير، وحفيف اغصان الحور والسنديان ، ورجع صدى النايات في المغاور والكهوف .

لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار ، ورياء يختبىء في رداء من التقليد والتصنع ، أما لبناني فحقيقة بسيطة عارية اذا نظرت في حوض ماء ما رأت غير وجهها الهادىء وملامحها المنبسطة .

لبنانكم شرائع وبنود على اوراق ، وعقود وعهود في دفاتر ، اما لبناني ففطرة في اسرار الحياة وهي لا تعلم انها تعلم ، وشوق يلامس في اليقظة اذيال الغيب ويظن نفسه في منام .

لبنانكم شيخ قابض على لحيته ، قاطب ما بين عينيه ولا يفكر الا بذاته ، اما لبناني ففتى ينتصب كالبرج ، ويبتسم كالصباح ، ويشعر بسواه شعوره بنفسه .

لبنانكم ينفصل آناً عن سوريا ويتصل بها آونة ثم يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول ، أما لبناني فلا يتصل ولا ينفصل ولا يتفوق ولا يتصاغر .

لكم لبنانكم ولي لبناني .

لكم لبنانكم وابناؤه ولي لبناني وأبناؤه .

ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم ؟

الا فانظروا هنيهة لأريكم حقيقتهم .

هم الذين ولدت ارواحهم في مستشفيات الغربيين .

هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع يمثل دور أريحي .

هم تلك القضبان الليّنة التي تميل الى اليمين والى اليسار ولكن بدون ارادة ، وترتعش في الصباح وفي المساء ولكنها لا تدري انها ترتعش .

هم تلك السفينة التي تصارع الأمواج وهي بدون دفة ولا شراع ، اما ربانها فالتردد واما ميناؤها فكهف تسكنه الغيلان — اوليست كل عاصمة في اوروبا كهفاً للغيلان ؟

هم الأشداء الفصحاء البلغاء ولكن بعضهم لدى بعض ، والضعفاء الخرسان امام الافرنج .

هم الاحرار المصلحون المتحمسون ولكن في صحفهم وفوق منابرهم، والمنقادون الرجعيون امام الغربيين .

هم الذين يضجون كالضفادع قائلين : لقد تملصنا من عدونا الطاغية القديم ، وعدوهم القديم الطاغية ما برح يختبىء في اجسادهم .

هم الذين يسيرون امام الجنازة مزمرين راقصين ، حتى اذا ما التقوا موكب العرس تحول تزميرهم الى نواح ورقصهم الى قرع الصدور وشق الاثواب .

هم الذين لا يعرفون المجاعة الا اذا كانت في جيوبهم ، فاذا ما التقوا من كانت مجاعته في روحه ضحكوا منه وتحوّلوا عنه قائلين : ما هذا سوى خيال يسير في عالم الأخيلة .

هم اولئك العبيد الذين تبدل الأيام قيودهم المصدأة بقيود لامعة فيظنون انهم اصبحوا احراراً مطلقين .

هؤلاء هم ابناء لبنانكم ، فهل بينهم من يمثل العزم في صخور لبنان ام النبل في ارتفاعه ام العذوبة في مائه ام العطر في هوائه ؟ هل بينهم من يتجرأ ان يقول : اذا ما مت تركت وطني افضل قليلاً مما وجدته عندما ولدت ؟ هل بينهم من يتجرأ ان يقول : لقد كانت حياتي قطرة من الدم في عروق لبنان او دمعة بين اجفانه او ابتسامة على ثغره ؟

هؤلاء هم ابناء لبنانكم ، فما اكبرهم في عيونكم وما اصغرهم في عيني! ولكن قفوا قليلاً وانظروا لأريكم ابناء لبناني :

هم الفلاحون الذين يحولون الوعر الى حدائق وبساتين .

هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من وادٍ الى وادٍ فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء .

هم الكرّامون الذين يعصرون العنب خمراً ويعقدون الخمر دبساً.

هم الآباء الذين يربون انصاب التوت والامهات اللواتي يغزلن الحرير.

هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللواتي يجمعن الاغمار.

هم البناؤون والفخارون والحائكون وصانعو الاجراس والنواقيس .

هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة ، وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنّى والزجل .

هم الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعزم في سواعدهم ويعودون اليه وخيرات الأرض في أكفهم واكاليل الغار على رؤوسهم .

هم الذين يتغلبون على محيطهم اينما حلوا ويجتذبون القلوب اليهم اينما وجدوا .

وهم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم . هؤلاء هم أبناء لبنان . هؤلاء هم السرج التي لا تطفئها الرياح والملح الذي لا تفسده الدهور .

هؤلاء هم السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال .

وماذا عسى ان يبقى من لبنانكم وأبناء لبنانكم بعد مئة سنة ؟ اخبروني — ماذا تتركون للغد سوى الدعوى والتلفيق والبلادة ؟ هل تحسبون



وجه أمي وجه أمتي

بريشة جبران خليل جبران

ان الزمن يحفظ في ذاكرته مظاهر الخداع والمداهنة والتدليس ؟

اتظنون ان الأثير يخزن في جيوبه اشباح الموت وانفاس القبور ؟ اتتوهمون أن الحياة تستر جسدها العاري بالخرق البالية ؟ اقول لكم والحق شاهد علي ان نصبة الزيتون التي يغرسها القروي في سفح لبنان لأبقى من جميع أعمالكم ومآتيكم ، والمحراث الخشبي الذي تجره العجول في منعطفات لبنان لأشرف وأنبل من كل امانيكم ومطامحكم . اقول لكم وضمير الوجود صاغ اليّ ان اغنية جامعة البقول بين هضبات لبنان لأطول عمراً من كل ما يقوله أوجه وأضخم ثرثار بينكم . اقول لكم انكم لستم على شيء . ولو كنتم تعلمون انكم لستم على شيء لتحول اشمئزازي منكم الى شكل من العطف والحنان ، ولكنكم لا تعلمون .

لكم لبنانكم ولي لبناني .

لكم لبنانكم وابناء لبنانكم فاقتنعوا به وبهم ان استطعتم الاقتناع بالفقاقيع الفارغة ، اما أنا فمقتنع بلبناني وابنائه ، وفي اقتناعي عذوبة وسكينة وطمأنينة .

الارض

تنبثق الأرض من الأرض كرهاً وقسراً .

ثم تسير الأرض فوق الأرض تيهاً و كبراً .

وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل .

وتنشيء الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع .

ثم تمل الأرض اعمال الأرض فتحوك من هالات الأرض الأشباح والأوهام والأحلام .

ثم يراود نعاس الأرض اجفان الأرض فتنام نوماً هادئاً عميقاً أبدياً .

ثم تنادي الأرض قائلة للأرض : أنا الرحم وأنا القبر وسأبقى رحماً وقبراً حتى تضمحل الكواكب وتتحول الشمس الى رماد .

بالامس . واليوم . وغداً

قلت لصديقي – ألا فانظرها متكئة على ساعده ، وبالامس كانت على ساعدي .

فقال – وغداً على ساعدي .

قلت – تأملها جالسة الى جانبه ، وبالامس كانت الى جانبي .

فقال – وغداً الى جانبي .

قلت – الا تبصرها تشرب الخمر من كأسه ، وبالامس كانت ترشفها من كأسي ؟

فقال – وغداً من كأسي .

قلت – انظر اليها ترمقه بعين ملؤها الحب ، وبالامس كانت ترمقني .

فقال – وغداً ترمقني .

قلت – اسمعها تهمس اغاني الغرام في أذنه ، وبالامس كانت تهمسها في اذني .

فقال – وغداً في أذني .

قلت – انظر فهي تعانقه ، وقد كانت بالامس تعانقني .

فقال – وغداً تعانقني .

قلت – ما اغربها امرأة !

قال – هي كالحياة يمتلكها كل البشر . وكالموت تتغلب على كل البشر . وكالأبدية تضم كل البشر .

الكمال

تسألني يا أخي متى يصير الانسان كاملاً .

فاسمع جوابي :

يسير الانسان نحو الكمال عندما يشعر بأنه هو الفضاء ولا حد له ، وهو هو البحر بدون شواطىء ، وانه النار المتأججة دائماً ، والنور الساطع أبداً ، والرياح اذا هبت او اذا سكنت ، والسحب اذا برقت وارعدت وامطرت ، والجداول اذا ترنمت او ناحت ، والاشجار اذا ازهرت في الربيع او تجردت في الخريف ، والجبال اذا تعالت ، والاودية اذا انخفضت ، والحقول اذا أخصبت او اجدبت .

اذا شعر الانسان بكل هذه الامور بلغ منتصف طريق الكمال ، أما اذا شاء بلوغ محجة الكمال فعليه ان شعر بكيانه ، ان يشعر بأنه الطفل المتكل على أمه ، والشيخ المسؤول عن عياله ، والشاب الضائع بين امانيه وغرامه ، والكهل الذي يصارع ماضيه ومستقبله ، والعابد في صومعته ، والمجرم في سجنه ، والعالم بين كتبه وأوراقه ، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره ، والراهبة بين ازهار ايمانها واشواك وحشتها ، والمومس بين انياب ضعفها ومخالب حاجتها ، والفقير بين مرارته وامتثاله ، والغني بين مطامعه واذعانه ، والشاعر بين ضباب امسائه وشعاع اسحاره .

اذا استطاع الانسان ان يختبر ويعلم جميع هذه الامور يصل الى الكمال ويصير ظلاً من ظلال الله .

الاستقلال والطرابيش

قرأت منذ أمد غير بعيد مقالاً لاديب قام يعترض ويحتج فيه على ربان وموظفي باخرة فرنسية اقلتـه من سورية الى مصر . ذلك لأن هؤلاء قد اجبروه ، او حاولوا اجباره على خلع طربوشه اثناء جلوسه الى مائدة الطعام ، وكلنا يعلم ان خلع القبعات تحت كل سقف عـادة مرعية عند الغربيين .

ولقد اعجبني هذا الاحتجاج لأنه أبان لي تمسك الشرقي برمز من رموز حياته الخاصة .

اعجبت بجرأة ذلك السوري كما اعجبت مرة بأمير هندي دعوته الى حضور رواية غنائية في مدينة ميلانو في ايطاليا فقال لي : « لو دعوتني الى زيارة جحيم دانتي لذهبت معك مسروراً ولكني لا استطيع الجلوس في مكان يحظرون فيه علي استبقاء عمامتي وتدخين اللفائف . »

اجل يعجبني ان أرى الشرقي متمسكاً ببعض مزاعمه قابضـاً ولو على ظل من ظلال عاداته القومية .

ولكن اعجـابي هذا لا ولن يمحو مـا وراءه من الحقـائق الخشنة المستتبة المتشبثة بذاتية الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق .

لو فكر ذلك الاديب الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الافرنجية بأن ذلك الطربوش الشريف قد صنع في معمل افرنجي لهان عليه خلعه في أي مكان في أية باخرة افرنجية .

لو فكر أديبنا بأن الاستقلال الشخصي في الأمـور الصغيرة كان وسيكون رهن الاستقلال الفني والاستقلال الصناعي ، وهما كبيران ، لخلع طربوشه بمتثلاً صامتاً .

لو فكر صاحبنا بأن الامة المستعبَدة بروحها وعقليتها لا تستطيع ان تكون حرة بملابسها وعاداتها .

لو فكر بذلك لما كتب مقاله معترضاً .

لو فكر أديبنا بأن جده السوري كان يبحر الى مصر على ظهر مركب سوري مرتدياً ثوباً غزلته وحاكته وخاطته الأيدي السورية لما تردى بطلنا الحر الا بالملابس المصنوعة في بلاده ولما ركب سوى سفينة سورية ذات ربان سوري وبحارة سوريين .

مصاب اديبنا الشجاع انه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالاسباب فتناولته الاعراض قبل ان يستميله الجوهر ، وهذا شأن اكثر الشرقيين الذين يأبون ان يكونوا شرقيين الا بتوافه الامور وصغائرها مع انهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيين مما ليس بتافه او صغير .

أقول لأديبنا واقول لجميع المتطربشين : الا فـاصنعوا طرابيشكم بيدكم ثم تخيروا في ما تفعلونه بطرابيشكم على ظهر الباخرة أو على قمة الجبل أو في جوف الوادي .

وتعلم السماء ان هـذه الكلمة لم تُكتب في الطرابيش أو في شأن خلعها أو استبقائها على الرؤوس تحت السقوف أو تحت المجرة . تعلم السماء انهـا كتبت في امر ابعد من كل طربوش ، فـوق كل رأس ، فوق كل جثة مختلجة .

أيتها الارض

ما اجملك ايتها الارض وما أبهاك .

ما اتم امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس .

ما اظرفك متشحة بالظل وما املح وجهك مقنعاً بالدجى .

ما أعذب أغاني فجرك وما اهول تهاليل مسائك .

ما اكملك أيتها الأرض وما أسناك .

لقــد سرت في سهولك ، وصعدت على جبالك ، وهبطت الى اوديتك ، وتسلقت صخورك ، ودخلت كهوفك ، فعرفت حلمك في السهل ، وانفتك على الجبل ، وهدوءك في الوادي ، وعزمك في الصخر ، وتكتمك في الكهف ، فانت انت المنبسطة بقوتها ، المتعالية بتواضعها ، المنخفضة بعلوها ، اللينة بصلابتها ، الواضحة باسرارها ومكنوناتها .

لقد ركبت بحارك ، وخضت انهارك ، وتتبعت جداولك ، فسمعت الأبدية تتكلم بمدك وجزرك ، والدهور تترنم بين هضابك وحزونك ، والحياة تناجي الحياة في شعبك ومنحدراتك ، فانت انت لسان الأبدية وشفاهها ، واوتار الدهور واصابعها ، وفكرة الحياة وبيانها .

لقد ايقظني ربيعك وسيرني الى غاباتك حيث تتصاعد انفاسك بخوراً ، واجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر اجهادك اثماراً ، واوقفني خريفك في كرومك حيث يسيل دمك خمراً ، وقادني شتاؤك الى

مضجعك حيث يتناثر طهرك ثلجاً ، فأنت أنت العطرة بربيعها ، الجوادة بصيفها ، الفياضة بخريفها ، النقية بشتائها .

وفي الليلة الصافية قد فتحت نوافذ نفسي وابوابها وخرجت اليك مثقلاً بمطامعي ، مكبلاً بقيود انانيتي ، فالفيتك شاخصة بالكواكب وهي تبتسم لك ، فنزعت عني قيودي واثقالي وعلمت ان منزل النفس فضاؤك ، ورغائبها في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك ، وسعادتها في الغبار الذهبي الذي تنثره النجوم على جسدك .

في الليلة المبطنة بالغيوم ، وقد مللت غفلتي وجمودي ، خرجت اليك فوجدتك جبارة هائلة مسلحة بالعاصفة ، تحاربين ماضيك بحاضرك ، وتصرعين قديمك بجديدك ، وتبعثرين ضئيلك بضليعك ، فعلمت ان نظام البشر نظامك ، وناموسهم ناموسك ، وسنتهم سنتك ، وان من لا يهصر برياحه ما يبس من اغصانه يموت مللاً ، ومن لا يمزق بثوراته ما بلي من اوراقه يفنى خمولاً ، ومن لا يكفن بنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفناً لمآتي الماضي .

*

ما اكرمك ايتها الارض وما اطول اناتك .

ما اشد حنانك على ابنائك المنصرفين عن حقيقتهم الى اوهامهم ، الضائعين بين ما بلغوا اليه وما قصروا عنه .

نحن نضجُ وانتِ تضحكين .

نحن نذهب وانت تكفرين .



ابن خلدون

بريشة جبران خليل جبران

نحن نجدف وانت تباركين .

نحن ننجس وانت تقدسين .

نحن نهجع ولا نحلم وانت تحلمين في سهرك السرمدي .

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وانت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم .

نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم وانت تستنبتينها حوراً وصفصافاً .

نحن نستودعك الجيف وانت تملأين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد .

نحن نصبغ وجهك بالدم وانت تغسلين وجوهنا بالكوثر .

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وانت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق .

ما اوسع صبرك ايتها الارض وما اكثر انعطافك .

ما انت ايتها الارض ومن انت ؟

أذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عندما سار من مشارق الاكوان الى مغاربها ، ام شرارة قذفت من موقد اللانهاية ؟

أنواة طرحت في حقل الاثير لتشق قشرتها بعزم لبابها وتتعالى نصبة ربانية الى ما فوق الاثير ؟

أقطرة من الدم في عروق جبار الجبابرة ، ام انت قطرة من العرق على جبينه ؟

أثمرة تلوحها الشمس ببطء ؟ أثمرة انت في شجرة المعرفة الكلية التي

تمد عروقها في اعماق الازل وترفع غصونها الى اعماق الابد ؟ ام جوهرة انت وضعها إله الزمن في حفنة الاهة المسافة ؟

أطفلة انت في حضن الفضاء ؟ ام عجوز ترقب الايام والليالي وقد شبعت من حكمة الليالي والايام ؟

ما انت ايتها الارض ومن انت ؟

انت انا ايتها الارض ! انت بصري وبصيرتي ، انت عاقلتي وخيالي واحلامي ، انت جوعي وعطشي ، انت ألمي وسروري ، انت غفلتي وانتباهي .

انت الجمال في عينيّ ، والشوق في قلبي ، والخلود في روحي .

انت انا ايتها الارض ، فلو لم اكن لما كنت .

البحر الاعظم

بالامس – وما ابعد الامس وما أقربه! – ذهبت ونفسي الى البحر الاعظم لنغسل بمائه ما علق بنا من غبار الارض واوحالها .

ولما بلغنا الشاطىء طفقنا نبحث عن مكان خال يحجبنا عن العيون .

وبينا نحن سائران التفتنا فاذا برجل جالس على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه الملح قبضة بعد قبضة ويطرحها في البحر .

فقالت لي نفسي : « هوذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلها . وليس المتشائم بخليق ان يرى جسدينا العاريين . فلنغادر هذا المكان اذ لا سبيل الى الاستحمام ههنا . »

فتركنا ذلك المكان وتابعنا المسير حتى وصلنا الى خور في الشاطىء فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر وهو يتناول منها قطعاً من السكر ويرمي بها في البحر

فقالت لي نفسي : « هوذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر فيه . وحذارِ من المتفائلين أن يروا جسدينا العاريين . » فعدنا نواصل السير حتى عثرنا على رجل واقف بقرب الشاطىء يلتقط الاسماك الميتة ويعيدها بحنو الى البحر .

فقالت لي نفسي : « وهذا هو الشفوق الذي يحاول ارجاع الحياة لمن في القبور ، فلنبتعد عنه . »

ثم انتهينا الى حيث رأينا رجلاً يرسم خياله على الرمال فتجيء الامواج وتمحو ما رسمه وهو يتابع عمله المرة بعد الاخرى .

فقالت لي نفسي : « هوذا المتصوف الذي يقيم في اوهامه صنماً ليعبده ، فلندعه وشأنه . »

ومشينا الى ان أبصرنا في خليج هادىء رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في اناء من العقيق .

فقالت لي نفسي : « هوذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العنكبوت رداء ليلبسه . وهو ليس بجدير ان يرى جسدينا عاريين . »

فتابعنا السير واذا بنا نسمع صوتاً هاتفاً : « هوذا البحر العميق . هوذا البحر الهائل العظيم . »

فبحثنا عن مصدر الصوت فرأينا رجلاً واقفاً مديراً ظهره الى البحر وقد وضع صدفة على اذنه وهو يصغي الى دمدمتها .

فقالت لي نفسي : « سر بنا فهذا هو الدهري الذي يدير ظهره الى كليات لا يستطيع الاحاطة بها ويشغل ذاته بجزئيات تستميل كليته . »

فسرنا الى ان رأينا في معشبة رجلاً بين الصخور وقد دفن رأسه في الرمال .

فقلت لنفسي : « هلمي يا نفس نستحم هنا . فهذا الرجل لا يستطيع ان يبصرنا . »

فهزت نفسي رأسها قائلة :

« لا والف لا . ان من تراه هو شر الناس اجمعهم . هو التقي



الجائعة المستعطية

بريشة جبران خليل جبران

النقي الذي يحجب نفسه عن مأساة الحيــاة فتحجب الحيــاة مسراتها عن نفسه . »

حينئذ ظهر على وجه نفسي حزن عميق . وبصوت تقطعه المرارة قالت :

« لنذهبن من هذه الشواطىء . فليس هنا مكان خفي محجوب نستطيع ان نستحم به . وانا لن ارضى ان اسرح غدائري الذهبية في هذه الريح، او ان اكشف صدري البض امام هـذا الفضاء ، أو أن اتجرد وأقف عارية امام هذا النور . »

فغادرت ونفسي ذلك البحر العظيم ، وسرنا ننشد البحر الاعظم .

في سنة لم تكن قط في التاريخ

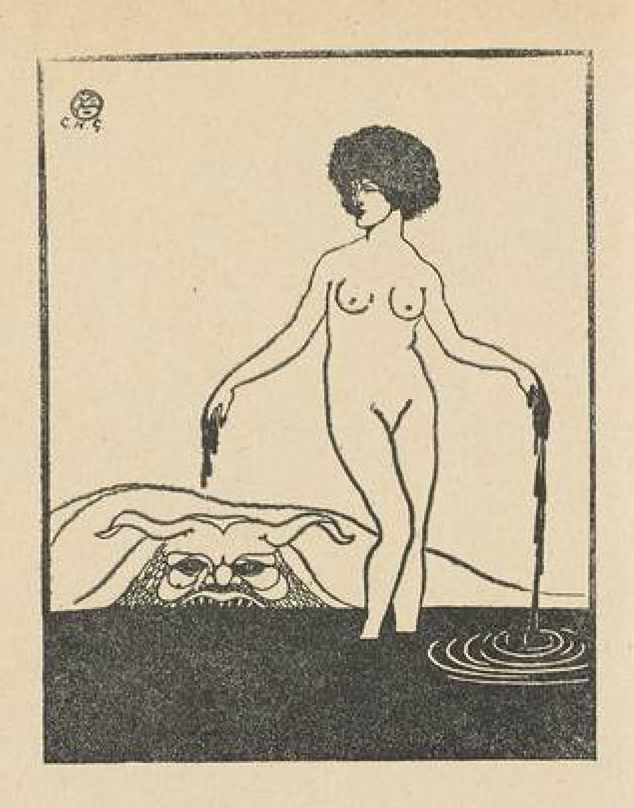
... في تلك الدقيقة ظهرت من وراء اشجار الصفصاف صبيـة تجر أذيالها على الاعشاب ووقفت بجانب الفتى النـائم ووضعت يدها الحريرية على رأسه فنظر اليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس . فرأى ابنة الامير واقفة حذاءه فجثا عـلى ركبتيه مثلما فعـل موسى عندمـا رأى العليقة مشتعلة ، ولما اراد الكلام ارتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبيـة وقبّلت شفتيه ، وقبّلت عينيه راشفة المدامع السخينة وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي :

قد رأيتك يا حبيبي في احلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم علي بالمجيء الى هـذا العالم . قد جئت سراً يا حبيبي لألتقيك وها انت الآن بين ذراعي" فلا تجزع . قد تركت مجد والدي لأتبعك الى اقاصي الارض واشرب معك كأس الحياة والموت .

قم يا حبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان .

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الامير ولا اشباح الظلمة .



بركة الدم

بريشة جبران خليل جبران

ابن سينا وقصيدته

ليس بين ما نظمه الاقدمون قصيدة ادنى الى معتقدي واقرب الى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس .

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الانسان وأعمق ما يلازم خياله من الاماني التي تولدها المعرفة ، والسؤالات التي يثمرها الرجاء ، والنظريات التي لا تصدر الا عن التفكر المستمر والتأملات الطويلة .

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب ان تكون مظهراً لرجل صرف عمره مستقصياً اسرار الاجسام ومزايا الهيولى . فكأني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وادرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات ، فجاءت قصيدته هذه برهاناً نيراً على ان العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبه من الاختبارات العملية الى النظريات العقلية ، الى الشعور الروحي ، الى الله .

قد يجد المطالع في ما نظمه كبار شعراء الغربيين مقاطع متفرقة تذكره بهذه القصيدة السامية . ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا :

وصلت على كره اليكِ وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجعِ

وفي اقوال تشلي ما يماثل :

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت
ما ليس يدرك بالعيون الهجّعِ

وفي تأملات غوتي ما يضارع :

وتعود عالمة بكل خفية
في العالمين ، فخرقها لم يرقعِ

وفي ما قاله براونن ما يضاهي :

فكأنها برق تألق بالحمى
ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة . فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على افكار مختلفة في ازمنة مختلفة . وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده ، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبعد موضوع .



ابن سينا

بريشة جبران خليل جبران

الغزالي

بين الغزالي والقديس اوغوسطينوس رابطة نفسية ، فهما منظران متشابهان لمبدإ واحد ، رغم ما بين زمانيهما ومحيطيهما من الاختلافات المذهبية والاجتماعية . اما ذلك المبدأ فهو ميل وضعي في داخل النفس يتدرج بصاحبه من المرئيات وظواهرها الى المعقولات فالفلسفة فالالهيات.

اعتزل الغزالي الدنيا وما كان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد وحده متصوفاً ، متوغلاً في البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل اواخر العلم بأوائل الدين ، متعمقاً في التفتيش عن ذلك الاناء الخفي الذي تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس واحلامهم .

وهكذا فعل اوغوسطينوس قبله بخمسة اجيال . فمن يقرأ له كتاب « الاعتراف » يرى انه قد اتخذ الارض ومآتيها سلماً يصعد عليه نحو ضمير الوجود الأعلى .

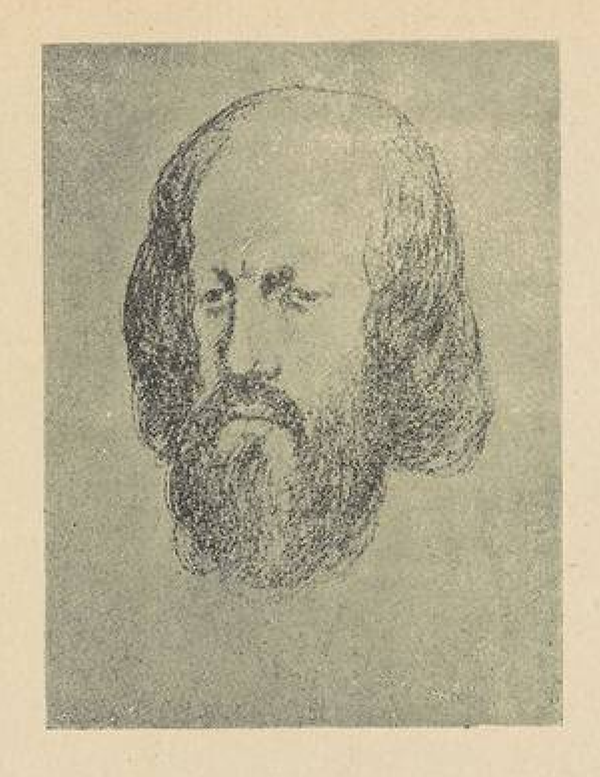
غير انني وجدت الغزالي اقرب الى جواهر الأمور واسرارها من القديس اوغوسطينوس . وقد يكون سبب ذلك في الفرق الكائن بين ما ورثه الاول من النظريات العلمية العربية واليونانية التي تقدمت زمانه وما ورثه الثاني من علم اللاهوت الذي كان يشغل آباء الكنيسة في القرنين الثاني والثالث للمسيح ، واعني بالوراثة ذلك الامر الذي ينتقل

مع الايام من فكر الى فكر مثلما تلازم بعض المزايا الجسدية مظاهر الشعوب من عصر الى عصر .

ووجدت في الغزّالي ما يجعله حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدموه من متصوفي الهند والذين جاؤوا بعده من الالهيين . ففي ما بلغت اليه افكار البوذيين قديماً شيء من ميول الغزّالي ، وفي ما كتبه سبنوزا ووليم بلايك حديثاً شيء من عواطفه .

وللغزّالي عند مستشرقي الغرب وعلمائه منزلة رفيعة . وهم يضعونه مع ابن سينا وابن رشد في المقـــام الاول بين فلاسفة الشرق . امـا الروحيون بينهـم فيحسبونه انبل واسمى فكرة ظهرت في الاسلام . ومن الغرائب انني شاهدت على جدران كنيسة في فلورنسا (ايطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر صورة الغزّالي بين صور غيره من الفلاسفة والقديسين واللاهوتيين الذين تعتبرهم أئمة الكنيسة في الاجيال الوسطى دعائم واعمدة في هيكل الروح المطلق .

ولكن الاغرب من ذلك هو ان الغربيـين يعرفون عن الغزّالي اكثر ممـا يعرفه الشرقيون . فهـم يترجمونه ويبحثون في تعـــاليمه ويدققون النظر في منازعه الفلسفية ومراميه الصوفية . اما نحن ، نحن الذين لم نزل نتكلم اللغة العربية ونكتبها ، فقلما ذكرنا الغزّالي او تحدثنا عنـه . نحن لم نزل مشغولين بالاصداف كأن الاصداف هي كل مـا يخرج من بحر الحياة الى شواطيء الايام والليالي .



الغزالي

بريشة جبران خليل جبران

جرجي زيدان

لقد مات زيدان ومماث زيدان عظيم كحياته ، جليل كأعماله .

لقد رقدت تلك الفكرة الكبيرة وحول مضجعها تحوم الآن سكينة توحي الهيبة والوقار وترتفع عن الحزن والبكاء .

قد تملصت تلك الروح الطيبة ورحلت الى عالم نشعر به ولا ندركه، وفي رحيلها عظة للباقين في قبضة الأيام والليالي .

قد تحرر ذلك الوجدان النبيل من متاعب العمل ومشاقه وسار ملتفاً برداء مجده الى حيث يتسامى العمل عن المشاق والمتاعب . قد ذهب زيدان الى حيث لا تراه العين ولا تسمعه الأذن — ولكن اذا كان زيدان قد انتقل الى احدى السيارات السابحة في بحر اللانهاية فهو الآن مشغول بنفع سكانها ،منهمك بجمع معارفها ، مأخوذ بجمال تاريخها، منصبٌ على درس لغاتها .

هذا هو زيدان — فكرة متحمسة لا ترتاح الاّ الى العمل ، وروح ظامئة لا تنام الاّ على منكبي اليقظة ،وقلب كبير مفعم بالرقة والغيرة. فإذا كانت تلك الفكرة لا تزال كائنة بكيان العقل العام فهي تشتغل الآن مع العقل العام . وإذا كانت تلك الروح موجودة بوجود النواميس فهي تعمل الآن مع النواميس . وإذا كان ذلك القلب باقياً ببقاء الله فهو الآن ملتهب بشعلة الله .

هذه هي حياة زيدان ـ ينبوع تدفق من صدر الوجود وصار نهراً صافياً يروي ما على جانبي الوادي من النبات والأنصاب .

وها قد بلغ النهر شاطىء البحر فأي متطفل يا ترى يجسر ان يندبه او يرثيه ؟

أوَليس الندب والنواح خليقين بالذين يقفون امـام عرش الحياة ثم ينصرفون قبـل ان يسكبوا في راحتيها قطرة من عرق جبينهم أو دم قلوبهم ؟

أوَلم يصرف زيدان ثلاثين سنة مذيباً قلبه مستقطراً جبينه ؟ وهل بيننا من لم يستقِ من تلك المجاري البلورية العذبة ؟

اذاً فمن شاء ان يكرم زيدان فليرفع نحـو روحه ترنيمة الشكر وعرفان الجميل بدلاً من ندبات الحزن والأسى .

من شاء ان يكرم ذكر زيدان فليطلب قسمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها زيدان وتركها ارثاً للعالم العربي .

لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرمونه .

لا تعطوا زيدان ندباً ورثاءً بل خذوا من مواهبه وعطاياه وهكذا تخلدون ذكره .

مستقبل اللغة العربية

١ – ما هو مستقبل اللغة العربية ؟

انما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الامة ، او ذاتها العامة ، فاذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار .

اذاً فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – او غير الكائن – في مجموع الامم التي تتكلم اللغة العربية . فان كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها ، وان كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية .

وما هذه القوة التي ندعوها بقوة الابتكار ؟

هي في الامة عزم دافع الى الامام . هي في قلبها جوع وعطش وشوق الى غير المعروف ، وفي روحها سلسلة احلام تسعى الى تحقيقها ليلاً ونهاراً ولكنها لا تحقق حلقة من احد طرفيها الا اضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر . هي في الافراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة ، وما النبوغ في الافراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في اشكال ظاهرة محسوسة . ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لان العرب كانوا في حالة التأهب ، وكان ينمو ويتمدد ايام المخضرمين لان العرب كانوا في حالة النمو والتمدد ، وكان يتشعب ايام المولدين

لان الامــة الاسلامية كانت في حالة التشعب . وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلوّن فيظهر آناً كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، واخرى كفلكي ،حتى راود النعاس قوة الابتكار في اللغة العربية فنامت وبنومها تحول الشعراء الى ناظمين والفلاسفة الى كلاميين والاطبـاء الى دجالـين والفلكيون الى منجمين .

اذا صح ما تقدم كان مستقبـل اللغة العربية رهن قوة الابتكار في مجموع الامم التي تتكلمها ، فان كان لتلك الامم ذات خاصة او وحدة معنوية وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قـــد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيماً كماضيها ، والا فلا .

*

٢ً – وما عسى ان يكون تأثير التمدين الاوروبي والروح الغربية فيها؟

انما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجهـــا فتمضغه وتبتلعه وتحول الصالح منه الى كيانها الحي كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب الى افنان فأوراق فأزهار فأثمار . ولكن اذا كانت اللغة بدون اضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سمّاً قاتلاً . وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظل فاذا ما نقلت الى نور الشمس ذبلت وماتت . وقد جاء : من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه .

واما الروح الغربية فهي دور من ادوار الانسان وفصل من فصول حياته . وحياة الانسان موكب هائل يسير دائمـاً الى الامام ، ومن

ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب . فالامم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثّر ؛ والامم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر ، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم في لغاتهم ، وها قد اصبحوا هم السابقين وامسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم في لغتنا وافكارنا واخلاقنا .

بيد ان الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربي ، اما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول الى كيانهم بل يحولهم الى شبه غربيين ، وهي حالة اخشاها واتبرم منها لأنها تبيّن لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس !

ان روح الغرب صديق وعدو لنا . صديق اذا تمكنا منه وعدوّ اذا تمكن منا . صديق اذا فتحنا له قلوبنا وعدو اذا وهبنا له قلوبنا . صديق اذا اخذنا منه ما يوافقنا وعدو اذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه .

*

٣ً — وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الاقطار العربية ؟
قد اجمع الكتّاب المفكرون في الغرب والشرق على ان الاقطار

العربية في حالة التشويش السياسي والاداري والنفسي . ولقد اتفق اكثرهم على ان التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال .

أما أنا فأسأل : هل هو تشويش أم ملل ؟

ان كان مللاً فالملل نهاية كل امة وخاتمة كل شعب — الملل هو الاحتضار في صورة النعاس ، والموت في شكل النوم .

وان كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً لأنه يبين ما كان خافياً في روح الأمة ويبدل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزُّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها بل لتكسر اغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء . واذا ما ظهر التشويش في امة لم تزل على شيء من الفطرة فهو اوضح دليل على وجود قوة الابتكار في افرادها والاستعداد في مجموعها . انما السديم اول كلمة من كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها ، وما السديم سوى حياة مشوشة .

اذاً فتأثير التطور السياسي سيحول ما في الاقطار العربية من التشويش الى نظام ، وما في داخلها من الغموض والإشكال الى ترتيب والفة ، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة . ان الخزّاف يستطيع ان يصنع من الطين جرة للخمر او للخل ولكنه لا يقدر ان يصنع شيئاً من الرمل والحصى .

*

٤ً — هل يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم ؟

لا يعم انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية الى ايدي الحكومات المحلية .

ففي سوريا مثلاً كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون ، ولقد احيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا . أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وابعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وامجادها . فالشاب الذي تناول لقمةً من العلم في مدرسة اميركية قد تحول بالطبع الى معتمد اميركي ، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا . . . الى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . واعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون اميركا أو انكلترا وصية على بلادهم ؛ والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم ؛ والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة ادنى الى معارفهم واقرب الى مداركهم .

وقد يكون ميلنا السياسي الى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟

ان المحسنين الحقيقيين واصحاب الاريحية في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به الينا ، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا . ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك ؟ هذا بحث آخر أتركه الى فرصة أخرى .

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتبلور منازعنا القومية لأن في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع ، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بامكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمة . لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين احدهما لجسده والآخر لروحه . لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لأن المتسول المحتاج لا يستطيع ان يشترط على المتصدق الأريحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مسيَّر دائماً والواهب مخيَّر أبداً .

*

٥ – وهل تتغلب (اللغة العربية الفصحى) على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها ؟

ان اللهجات العامية تتحور وتتهذب ويُذلك الخشن فيها فيلين ولكنها لا ولن تُغلب – ويجب ألاّ تُغلب – لأنها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعده بليغاً من البيان .

ان اللغات تتبع مثل كل شيء آخر سنّة بقاء الأنسب ، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الانسب الذي سيبقى لانه اقرب الى فكرة الامة وأدنى الى مرامي ذاتها العامة . قلت انه سيبقى وأعني بذلك انه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها .

لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية ، ولتلك اللهجات مظاهر ادبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر ، بل في أوروبا واميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة . وعندي ان في الموال والزجل و « العتابا » و « المعنّى » من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا ، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب ، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة .

لقد كانت اللغة الايطالية الحديثة لهجةً عامية في القرون المتوسطة ، وكان الخاصة يدعونها بلغة « الهمج » ، ولكن لما نظم بها دانتي وبترارك وكامونس وفرانسيس داسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة اصبحت تلك اللهجة لغة ايطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلاً يسير

ولكن في نعش على اكتاف الرجعيين . . . وليست اللهجات العامية في مصر وسوريا والعراق ابعد عن لغة المعري والمتنبي من لهجة «المسج» الايطالية عن لغة اوفيدي وفرجيل . فإذا ما ظهر في الشرق الادنى عظيم ووضع كتاباً عظيماً في احدى تلك اللهجات تحولت هذه الى لغة فصحى . بيد اني استبعد حدوث ذلك في الاقطار العربية لان الشرقيين أشد ميلاً الى الماضي منهم الى الحاضر او المستقبل ، فهم المحافظون ، على معرفة منهم او على غير معرفة ، فان قام كبير بينهم لزم في اظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الاقدمون ، وما سبل الاقدمين سوى اقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده .

*

٦ – وما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربية ؟

ان خير الوسائل ، بل الوسيلة الوحيدة لاحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين اصابعه ، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس الى عالم البحث ، وما يقرره عالم الفكر الى عالم الحفظ والتدوين .

الشاعر ابو اللغة وامها ، تسير حيثما يسير وتربض اينما يربض ، واذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها .

واذا كان الشاعر ابا اللغة وامها فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها .

اعني بالشاعر كل مخترع كبيراً كان او صغيراً ، وكل مكتشف

قوياً كان او ضعيفاً ، وكل مختلق عظيماً كان او حقيراً ، وكل محب للحياة المجردة اماماً كان او صعلوكاً ، وكل من يقف متهيباً امام الايام والليالي فيلسوفاً كان او ناطوراً للكروم .

اما المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئاً ولا يختلق امراً بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ويصنع اثوابه المعنوية من رقع يجزها من اثواب من تقدمه .

اعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن ابيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد ، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد ، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الاقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد . اعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً ، والبنّاء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة ، والصبّاغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها احد قبله فيستخرج لوناً جديداً ، فيأتي بعد الملاح والبناء والصباغ من يدعو ثمار اعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً الى سفينة اللغة ونافذة الى بيت اللغة ولوناً الى ثوب اللغة .

اما المقلد فهو ذاك الذي يسير من مكان الى مكان على الطريق التي سار عليها الف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة ان يتيه ويضيع ، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل

المطروقة التي مشى عليها الف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظل ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد ان يعرف .

اعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادباً مهللاً مصغياً مناجياً ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه اسماء وافعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم وانواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة فيضيف بعمله هذا وتراً فضياً الى قيثارة اللغة وعوداً طيباً الى موقدها .

اما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون ارادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية .

اعني بالشاعر ذاك الذي ان احب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتلبس احلامها اجساداً من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الاودية ثم عادت لتضفر من اختباراتها اكليلاً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة .

اما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيبه ، فان ذكر وجه حبيبته وعنقها قال : بدر وغزال . وان خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال : ليل وغصن بان وسهام . وان شكا قال : جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب . وان شاء ان يأتي بمعجزة بيانية قال : حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعض على عناب اناملها ببرد اسنانها . يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الاغنية العتيقة

وهو لا يدري انه يسمم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها .

قد تكلمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم اذكر اولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطولات وتشكيل المجامع اللغوية — لم اقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنهم كالشاطىء بين مد اللغة وجزرها وان وظيفتهم لا تتعدى حد الغربلة — والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون اذا كانت قوة الابتكار في الامة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد الا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب ؟

اقول ثانية ان حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر . فهل عندنا شعراء ؟

نعم عندنا شعراء ، وكل شرقي يستطيع ان يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وامام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته . كل شرقي يستطيع ان يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج الى نور الشمس فيسير في موكب الحياة . كل شرقي يستطيع ان يستسلم الى قوة الابتكار المختبئة في روحه ، تلك القوة الازلية الابدية التي تقيم من الحجارة ابناء الله .

اما اولئك المنصرفون الى نظم مواهبهم ونثرها فنهم اقول : ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء اثر المتقدمين ، فخير لكم وللغة العربية ان تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضعية من ان تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم

زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة ، فخير لكم وللغة العربية ان تموتوا مهملين محتقرين من ان تحرقوا قلوبكم بخوراً امام الانصاب والاصنام . ليكن لكم من حماستكم القومية دافع الى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح ، فخير لكم وللغة العربية ان تتناولوا ابسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من ان تعرّبوا اجل واجمل ما كتبه الغربيون.



ابن الفارض

بريشة جبران خليل جبران

ابن الفارض

كان عمر بن الفارض شاعراً ربانياً . وكانت روحه الظمآنة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة ، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف احلام الشعراء وميول العشاق واماني المتصوفين . ثم يفاجئها الصحو فتعود الى عالم المرئيات لتدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة ، لكنها غير خالية في بعض الاحايين من ذلك التعقيد اللفظي المعروف بالبديع ، وهو في شرعي ليس بالبديع .

ولكن اذا وضعنا صناعة الفارض جانباً ونظرنا الى فنه المجرد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسية وجدناه كاهناً في هيكل الفكر المطلق ، اميراً في دولة الخيال الوسيع ، قائداً في جيش المتصوفين العظيم ، ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحق ، المتغلب في طريقه على صغائر الحياة وتوافهها ، المحدق ابداً الى هيبة الحياة وجلالها .

وقد عاش الفارض في زمن خال من التوليد العقلي والاحداث النفسي بين قوم منصرفين الى التقليد والتقاليد ، مشغولين باستفسار واستيضاح ما تركه الاسلام من الامجاد الادبية والفلسفية . غير ان النبوغ — والنبوغ معجزة الهية — قد صار بشاعر الحموي فتنحى عن زمنه وعن محيطه واختلى بذاته لينظم ما يتراءى لذاته شعراً ابدياً يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها .

ولم يتناول الفارض مواضيعه من ماجريات يومه كما فعل المتنبي ، ولم تشغله معميات الحياة واسرارها كما شغلت المعري ، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا ، ويغلق اذنيه عن ضجة الارض ليسمع أغاني اللانهاية .

هذا هو الفارض : روح نقية كأشعة الشمس ، وقلب متقد كالنار ، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال . وهو ان كان دون الجاهليين عزماً وأقل من المولدين ظرفاً ففي شعره ما لم يحلم به الاولون ولم يبلغه المتأخرون .

العهد الجديد

في الشرق اليوم فكرتان متصارعتان: فكرة قديمة وفكرة جديدة. أما الفكرة القديمة فستُغلب على امرها لانها منهوكة القوى محلولة العزم.

وفي الشرق يقظة تراود النوم، واليقظة قاهرة لان الشمس قائدها والفجر جيشها.

وفي حقول الشرق، ولقد كان الشرق بالامس جبانة واسعة الارجاء، يقف اليوم فتى الربيع منادياً سكان الاجداث ليهبوا ويسيروا مع الايام. واذا ما انشد الربيع اغنيته بُعِثَ مصروع الشتاء وخلع اكفانه ومشى.

وفي فضاء الشرق اهتزازات حية تنمو وتتمدد وتتوسع وتتناول النفوس المتنبهة الحساسة فتضمها اليها، وتحيط بالقلوب الأبية الشاعرة لتكتسبها.

وللشرق اليوم سيدان: سيد يأمر وينهى ويطاع ولكنه شيخ يحتضر، وسيد ساكت بسكوت النواميس والأنظمة، هادىء بهدوء الحق، ولكنه جبار مفتول الساعدين يعرف عزمه ويثق بكيانه ويؤمن بصلاحيته.

*

في الشرق اليوم رجلان : رجل الامس ورجل الغد ، فأي منهما أنت ايها الشرق ؟

الا فاقترب مني لأتفرسك واتبصرك واتحقق من ملامحك ومظاهرك ما اذا كنت من الآتين الى النور او الذاهبين الى الظلام .

تعال واخبرني ما انت ومن انت .

أسياسي يقول في سره : « اريد ان انتفع من امتي » ؟ ام غيور متحمس يهمس في نفسه : « اتوق الى نفع امتي » ؟

ان كنت الاول فأنت نبتة طفيلية ، وان كنت الثاني فانت واحة في صحراء .

أتاجر يتخذ عوز الناس وسيلة للربح والانتفاخ فيحتكر الضروريات ليبيع بدينار ما ابتاعه بدرهم ؟ ام رجل جدّ واجتهاد يسهل التبادل بين الحائك والزارع ويجعل نفسه حلقة بين الراغب والمرغوب ، فيفيد المرغوب والراغب ويستفيد بعدل منهما ؟

ان كنت الاول فأنت مجرم سكنت القصور او السجون ، وان كنت الثاني فأنت محسن شكرك الناس او جحدوك .

أرئيس دين يحوك من سذاجة القوم برفيراً لجسده ، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه ، ويدّعي كره ابليس ويعيش بخيراته ؟ ام تقي ورع يرى في فضيلة الفرد اساساً لرقي الامة ، وفي استقصاء اسرار روحه سلماً الى الروح الكلي ؟

ان كنت الأول فأنت كافر ملحد صُمتَ النهار او صليتَ الليل ، وان كنت الثاني فأنت زنبقة في جنة الحق ضاع اريجها بين انوف

البشر او تصاعد حراً طليقاً الى الغلاف الأثيري حيث تحفظ انفاس الأزهار .

أصحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخاسين وينمو ويترعرع على ما يفرزه الاجتماع من اخبار المصائب والويلات ، ونظير الشوحة الجائعة لا تهبط الا على الجيف المنتنة ؟ ام معلم واقف على منبر من منابر المدنية يستمد من مآتي الأيام مواعظ يلقيها على الناس بعد ان يتعظ بها هو نفسه ؟

ان كنت الأول فأنت بثور وقروح ، وان كنت الثاني فدواء وبلسم .

احاكم يتصاغر امام من ولاه ويستصغر من تولى عليهم ، فلا يحرك يداً الا ليضعها في جيوبهم ، ولا يخطو خطوة الا لمطمع له فيهم ؟ ام خادم امين يدير شؤون الشعب ويسهر على مصالحه ويسعى الى تحقيق امانيه ؟

ان كنت الأول فأنت زوان في بيادر الأمة ، وان كنت الثاني فأنت بركة في اهرائها .

ازوج يستبيح لنفسه ما يحرمه على زوجته ، ويسرح ويمرح وفي حزامه مفتاح سجنها ، ويلتهم ما يشتهيه حتى التخمة وهي جالسة في وحدتها امام صحفة فارغة ؟ ام رفيق لا يسير الى امر الا ويده بيد رفيقته ، ولا يفعل امراً الا ولها فيه فكرة ورأي ، ولا يفوز بأمر الا لتساهمه افراحه وامجاده ؟

ان كنت الاول فأنت ممن بقي حياً من قبائل انقرضت وهي تسكن

الكهوف وتلبس الجلود ، وان كنت الثاني فأنت في طليعة امة تسير مع الفجر نحو ظهيرة العدالة والحصافة .

أكاتب بحاثة يشمخ برأسه الى ما فوق رؤوسنا اما ما في داخل رأسه فيدب في هوة الماضي الغابر حيث القت الأجيال ما رثّ من اثوابها ، ورمت ما لم يعد صالحاً لها ، أم فكرة صافية تتفحص محيطها لتعلم ما ينفعه وما يضره فتصرف العمر في بناء النافع وهدم المضر ؟

ان كنت الأول فأنت سخافة مطرّسة وبلادة مزركشة ، وان كنت الثاني فأنت خبز للجائعين وماء للظامئين .

اشاعر انت يضرب الطنبور امام ابواب الامراء وينثر الازهار في الاعراس ويسير وراء الجثث الهامدة وبين فكيه اسفنجة مثقلة بالماء الفاتر حتى اذا ما بلغ المقبرة ضغط عليها بلسانه وشفتيه ، ام موهوب وضع الله في يده قيثارة يستولدها انغاماً علوية تجذب قلوبنا وتوقفنا متهيبين امام الحياة وما في الحياة من الجمال والهول ؟

ان كنت الاول فأنت من المشعوذين الذين لا ينبهون في نفوسنا سوى عكس ما يقصدون ، فان تباكوا نضحك ، وان مرحوا نكتئب ، وان كنت الثاني فأنت بصيرة مشعشعة وراء بصرنا ، وشوق عذب في قلوبنا ، ورؤيا ربانية في غيبوبتنا .

*

اقول في الشرق موكبان : موكب من عجائز محدودبي الظهور

يسيرون متوكئين على العصي العوجاء ، ويلهثون منهوكين مع انهم ينحدرون من الاعالي الى المنخفضات ، وموكب من فتيان يتراكضون كأن في أرجلهم اجنحة ، ويهللون كأن في حناجرهم أوتاراً ، وينتهبون العقبات كأن في جبهات الجبال قوة تجذبهم وسحراً يختلب ألبابهم .

فمن أية فئة انت ايها الشرقي وفي أي موكب تسير ؟

الا فاسأل نفسك ، استجوبها في سكينة الليل وقد صحتْ من مخدرات محيطها عما اذا كنت من عبيد الأمس ام من احرار الغد ؟

اقول لك ان ابناء الامس يمشون في جنازة العهد الذي اوجدهم واوجدوه . اقول انهم يشدون بحبل اوهت الايام خيوطه ، فاذا ما انقطع — وعما قريب ينقطع — هبط من تعلق به الى حفرة النسيان . أقول انهم يسكنون منازل متداعية الاركان ، فاذا ما هبت العاصفة — وهي على وشك الهبوب — انهدمت تلك المنازل على رؤوسهم وكانت لهم قبوراً . اقول ان افكارهم واقوالهم ومنازعهم وتصانيفهم ودواوينهم وكل مآتيهم ليست سوى قيود تجرهم بثقلها ولا يستطيعون جرها لضعفهم.

اما ابناء الغد فهم الذين نادتهم الحياة فاتبعوها باقدام ثابتة ورؤوس مرفوعة . هم فجر عهد جديد ، فلا الدخان يحجب انوارهم ، ولا قلقلة السلاسل تغمر اصواتهم ، ولا نتن المستنقعات يتغلب على طيبهم . هم طائفة قليلة العدد بين طوائف كثر عددها ، ولكن في الغصن المزهر ما ليس في غابة يابسة ، وفي حبة القمح ما ليس في رابية من التبن . هم فئة مجهولة لكنهم يعرفون بعضهم بعضاً ، ومثل قمم عالية يرى واحدهم

الآخر ويسمع نداءه ويناجيه ، اما المغاور فعمياء لا ترى ، وطرشاء لا تسمع . هم النواة التي طرحها الله في حقلةٍ ما ، فشقت قشرتها بعزم لبابها ، وقابلت نصبة غضة امام وجه الشمس ، وسوف تنمو شجرة عظمى تمتد عروقها الى قلب الارض وتتصاعد فروعها الى اعماق الفضاء.

الوحدة والانفراد

الحياة جزيرة في بحر من الوحدة والانفراد .

الحياة جزيرة صخورها الاماني ، واشجارها الاحلام ، وازهارها الوحشة ، وينابيعها التعطش ، وهي في وسط بحر من الوحدة والانفراد.

حياتك يا اخي جزيرة منفصلة عن جميع الجزر والاقاليم ، ومهما سيرت من المراكب والزوارق الى الشواطىء الاخرى ومهما بلغ شواطئك من الاساطيل والعمارات فأنت انت الجزيرة المنفردة بآلامها المستوحدة بأفراحها البعيدة بحنينها المجهولة بأسرارها وخفاياها .

رأيتك يا اخي جالساً على رابية من الذهب وانت فرح بثروتك متفوق بغناك شاعر ان في كل حفنة من التبر سلكاً خفياً يصل فكرة الناس بفكرتك ويربط ميولهم بميولك . ومثل فاتح كبير أبصرتك تقود فيالق جنود الظفر الى المعاقل الحصينة فتدكها ، والى المستحكمات المنيعة فتمتلكها . ولكنني نظرت اليك ثانية فرأيت وراء جدران خزائنك قلباً يختلج في وحدته وانفراده اختلاج ظامىء في قفص مصنوع من الذهب والجواهر ولكنه خالٍ من الماء .

رأيتك يا اخي جالساً على عرش من المجد وقد وقف حولك الناس مترنمين باسمك مرددين حسناتك معددين مواهبك محدقين إليك كأنهم في حضرة نبي يرفع ارواحهم بعزم روحه ويطوف بها بين النجوم

والكواكب ، وانت تنظر اليهم وعلى وجهك سيماء الغبطة والقوة والتغلب كأنك منهم بمقام الروح من الجسد . ولكنني نظرت اليك ثانية فرأيت ذاتك المستوحدة واقفة الى جانب عرشك وهي تتوجع بغربتها وتغص بوحشتها . ثم رأيتها تمد يدها الى كل ناحية كأنها تستعطف وتستعطي الاشباح غير المنظورة . ثم رأيتها تنظر من فوق رؤوس الناس الى مكان قصي ، الى مكان خالٍ من كل شيء سوى وحدتها وانفرادها .

رأيتك يا اخي مشغوفاً بحب امرأة جميلة وانت تسكب على مفرق شعرها ذوب قلبك وتملأ راحتيها بقبل شفتيك وهي تنظر اليك وأشعة الانعطاف في عينيها وحلاوة الامومة على ثغرها ، فقلت بسري : لقد أزالت المحبة وحدة هذا الرجل ومحت انفراده فعاد واتصل بالروح الكلية العامة التي تجتذب اليها بالحب ما انفصل عنها بالخلو والسلوان . ولكنني نظرت اليك ثانية فرأيت طي قلبك المشغوف قلباً منفرداً يريد ان يسكب مخبآته على رأس المرأة ولا يقدر ، ورأيت وراء نفسك الذائبة حباً نفساً اخرى مستوحدة شبيهة بالضباب تروم ان تتحول في حفنتي رفيقتك الى قطرات من الدموع ولكنها لا تستطيع .

*

حياتك يا اخي منزل منفرد بعيد عن جميع المنازل والاحياء .

حياتك المعنوية منزل بعيد عن سبل الظواهر والمظاهر التي يدعوها الناس باسمك . فان كان هذا المنزل مظلماً فأنت لا تقدر ان تنيره



ديك الجن الحمصي

بريشة جبران خليل جبران

بسراج قريبك ، وان كان خالياً فأنت لا تستطيع ان تملأه من خيرات جارك ، وان كان قائماً في صحراء فأنت لا تقدر ان تنقله الى حديقة غرسها سواك ، وان كان منتصباً على قمة جبل فانت لا تستطيع ان تهبط به الى وادٍ وطئته اقدام غيرك .

حياتك النفسية يا اخي محاطة بالوحدة والانفراد ، ولولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لما كنت انت انت ، وانا انا . لولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لكنت ان سمعت صوتك ظننتني متكلماً ، وان رأيت وجهك توهمت نفسي ناظراً في المرآة .

ارم ذات العماد

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » (القرآن الكريم)
« يدخلها بعض امتي » (الحديث)

توطئة لارم ذات العماد

بعد ان ملك شداد بن عاد جميع الدنيا أمر الف امير من جبابرة قوم عاد ان يخرجوا ويطلبوا ارضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة عن الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب . فخرج اولئك الامراء ومع كل امير الف رجل من خدمه وحشمه . فساروا حتى وجدوا ارضاً واسعة طيبة الهواء فأعجبتهم تلك الارض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها اربعون فرسخاً من كل جهة عشرة ، فحفروا الاساس الى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الارض ثم احاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر اذا أشرقت الشمس . وكان شدّاد قد بعث الى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخذه لبناً . واستخرج الكنوز المدفونة ثم بنى داخل المدينة مائة الف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على أعمدة من انواع الزبرجد واليواقيت معقدة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع . وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور

والمنازل وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة وجعل على حافات الانهار انواع الاشجار جذوعها من الذهب واوراقها وثمرها من انواع الزبرجد واليواقيت واللآلىء . وطلى حيطانها بالمسك والعنبر . وجعل فيها جنة مزخرفة له . وجعل اشجارها الزمرد واليواقيت وسائر انواع المعادن . ونصب عليها انواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد وغير ذلك .

« الشمي في كتاب سير الملوك »

ارم ذات العماد

المكان : غابة صغيرة من الجوز والحور والرمان تحيط بمنزل قديم منفرد بين منبع العاصي وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان .

الزمان : عصارى يوم من ايام تموز في سنة ١٨٨٣ .

اشخاص الرواية : زين العابدين النهاوندي ، وهو درويش عجمي في الاربعين من عمره ، معروف بالصوفي .

نجيب رحمة : اديب لبناني في الثالثة والثلاثين .

آمنة العلوية : معروفة في تلك النواحي بجنية الوادي ، ولا احد يعرف عمرها .

يرفع الستار فيظهر زين العابدين متكئاً على ساعده في ظلال الاشجار وهو يرسم برأس عصاه الطويلة خطوطاً مستديرة على التراب . بعد هنيهة يدخل الغابة نجيب رحمة راكباً على فرس ثم يترجل ويربط مقود فرسه بجذع شجرة وينفض الغبار عن ملابسه ثم يقترب من زين العابدين .

نجيب رحمة : السلام عليك يا سيدي .

زين العابدين : وعليك السلام . ويحول وجهه قائلاً في نفسه : اما السلام فنقبله ، واما السيادة فلا ندري انقبلها ام لا .

نجيب – ينظر حواليه مستفحصاً : أهنا تسكن آمنة العلوية ؟

زين العابدين : هذا منزل من منازلها .

نجيب : اتعني يا سيدي ان لها بيتاً آخر ؟

زين العابدين : لها منازل لا عداد لها .

نجيب : منذ الصباح وانا ابحث واسأل كل من لقيته عن مقر آمنة العلوية ولم يقل لي احد ان لها منزلين او اكثر .

زين العابدين : هذا دليل على انك لم تلتقِ منذ الصباح غير من لا يرى الا بعينيه ولا يسمع الا بأذنيه .

نجيب – مستغرباً : ربما كان الامر مثلما تقول . ولكن اصدقني يا سيدي أفي هذا المكان تسكن آمنة العلوية ؟

زين العابدين : نعم في هذا المكان يسكن جسدها بعض الاحايين.

نجيب : وهلاّ اخبرتني اين هي الآن ؟

زين العابدين : هي في كل مكان (مشيراً بيده الى الجهة الشرقية) اما جسدها فيسير متجولاً بين تلك التلول والاودية .

نجيب : وهل تعود اليوم الى هذا المكان ؟

زين العابدين : ستعود ان شاء الله .

نجيب – يجلس على صخر امـــام زين العابدين ثم يتفحصه طويلاً : يبدو لي من لحيتك انك فارسي .

زين العابدين : نعم ولدت في نهاوند وربيت في شيراز وتثقفت في نيسابور وجبت مشارق الارض ومغاربها وانا غريب في كل مكان .

نجيب : كلنا غريب في كل مكان .

زين العابدين : لا والحق ، فقد لقيت وحدثت الف الفٍ من الناس فلم ارَ سوى المكتفين بمحيطهم ، المستأنسين بألفهم ، المنصرفين عن العالم الى الفسحة الضيقة التي يرونها من العالم .

نجيب – معجباً بكلام جليسه : الانسان يا سيدي مطبوع على حب المكان الذي ولد فيه .

زين العابدين : المحدود من الناس مطبوع على حب المحدود من الحياة ، وشحيح البصر لا يرى غير ذراع من السبيل الذي تطأه قدماه ، وذراع من الحائط الذي يسند اليه ظهره .

نجيب : ليس لكل منا المقدرة على الاحاطة بكليات الحياة . ومن الظلم ان تطلب من شحيح البصر ان يرى البعيد والضئيل .

زين العابدين : اصبت واحسنت ، فمن الظلم ان نطلب الخمر من الحصرم .

نجيب – بعد دقيقة سكوت : اسمع يا سيدي ، منذ اعوام وانا اسمع الاخبار عن آمنة العلوية ، ولقد اثرت بي هذه الاخبار الى درجة قصوى فعزمت على الاجتماع بها لاستفسارها ومعرفة اسرارها وخفاياها .

زين العابدين – يقاطعه : ايوجد في هذا العالم من يستطيع معرفة اسرار آمنة العلوية وخفاياها ؟ ايوجد بين البشر من يقدر ان يسير متجولاً متنزهاً في قاع البحر كأنه في حديقة ؟

نجيب : قد اسأت التعبير يا سيدي فسامحني . انا لا اقدر بالطبع

على الاحاطة بمكنونات آمنـــة العلوية ولكنني ارجو ان اسمع منها حكاية دخولها الى ارم ذات العماد .

زين العابدين : ما عليك سوى الوقوف في باب حلمها ، فان فتح لك بلغت قصدك ، وان لم يفتح فأنت الملوم .

نجيب : ماذا تعني ياسيدي بقولك ان لم يفتح لي كنت انا الملوم ؟

زين العابدين : اعني ان آمنة العلوية ادرى الناس منهم بنفوسهم ، فهي ترى بلمحة واحدة ما في ضمائرهم وقلوبهم وارواحهم ، فان وجدتك خليقاً بمحادثتها حدّثتك والاّ فلا .

نجيب : ماذا اقول وماذا افعل لأكون حرياً باستماع حديثها ؟

زين العابدين : عبثاً تحاول الدنو من آمنـة العلوية بواسطـة القول والعمل ، فهي لا ولن تصغي الى ما تقوله لا ولا تنظر الى ما تفعله بل سوف تسمع باذن اذنها ما لا تقوله وترى بعين عينها ما لا تفعله .

نجيب ـ تظهر على ملامحه سياء الدهشة : ما ابلغ كلامك هذا وما اجمله !

زين العابدين : ليس ما اقول عن آمنة العلوية سوى دندنة اخرس يريد ان يغني نشيداً .

نجيب : اتعلم يا سيدي اين ولدت هذه المرأة العجيبة ؟

زين العابدين : ولدت في صدر الله .

نجيب ـ ملتبكاً : اعني اين ولد جسدها ؟

زين العابدين : بجوار دمشق .

نجيب : وهلاّ اخبرتني شيئاً عن والديها وتربيتها ؟

زين العابدين : ما اشبه سؤالاتك هذه بسؤالات القضاة والمتشرعين . أتظن انك تستطيع ادراك الجواهر باستفسارك الاعراض ، او معرفة طعم الخمرة بمجرد النظر الى خارج الجرة ؟

نجيب : بين الارواح واجسادها رابطة ، وبين الاجساد ومحيطها علاقة ، ولما كنت لا اعتقد بالصدف ارى ان النظر في تلك الروابط وتلك العلاقات لا يخلو من الفائدة .

زين العابدين : اعجبتني ، اعجبتني . يلوح لي أنك على شيء من العلم . اذاً فاسمع . لا أعرف شيئاً عن والدة آمنة العلوية سوى انها ماتت وهي تمخض بابنتها . أما والدها الشيخ عبد الغني الضرير المشهور بالعلوي فقد كان إمام زمانه في العلوم الباطنية والتصوف . وقد كان ، رحمه الله ، ولوعاً بابنته الى درجة قصوى فهذبها وثقفها وسكب في روحها كل ما في روحه ، ولما بلغت اشدها أدرك ان العلوم التي اخذتها عنه لم تكن من العلم الذي انزل عليها الا بمقام الزبد من البحر فصار يقول عنها : لقد انبثق من ظلمتي نور استضيء به . ولما بلغت الخامسة والعشرين خرج بها لاداء فريضة الحج . ولما قطعا بادية الشام وأصبحا على بُعد ثلاث مراحل من المدينة المنورة بلي الضرير بالحمى وتوفي فدفنته ابنته في لحف جبل هناك وجلست على قبره سبع ليالٍ تناجي روحه وتستكشفها اسرار الغيب وتستعلم منها عما وراء الحجاب . وفي الليلة السابعة أوحت اليها روح والدها ان تطلق راحلتها وتحمل زادها على عاتقها وتسير من ذلك المكان الى الجنوب الشرقي ، ففعلت (يسكت دقيقة ويحدق الى الافق البعيد ثم يعود الى الكلام) وظلت آمنة العلوية

سائرة في البادية حتى وصلت الى « الربع الخالي » وهو قلب الجزيرة الذي لم تخترقه قافلة ولم يصل اليه سوى افراد قليلين منذ بده الاسلام الى يومنا هذا . اما الحجاج فظنوا انها تاهت في تلك القفار وقضت جوعاً ، ولما عادوا الى دمشق أخبروا الناس بذلك فحزن عليها وعلى ابيها من عرف فضلهما ثم التحف ذكرهما النسيان كأنهما ما كانا ... وبعد خمسة أعوام ظهرت آمنة العلوية في الموصل . وكان ظهورها بما هي عليه من الجمال والهيبة والعلم والصلاح أشبه شيء بهبوط نيزك من الفضاء . فقد كانت تسير بين الناس مسفرة وتقف بحلقات العلماء والأئمة متكلمة عن الامور الربانية وتصف لهم مشاهد ارم ذات العماد بفصاحة ما سمع القوم بمثلها . ولما اشتهر امرها وكثر عدد اتباعها ومريديها خاف علماء المدينة ظهور بدعة وخشوا الفتنة فشكوها الى الوالي فاستقدمها هذا اليه والقى بين يديها صرة من الذهب وطلب اليها ان تغادر المدينة ، فرفضت المال وتركت المدينة ليلاً دون ان يصحبها احد من الناس . ثم توجهت الى الآستانة فحلب فدمشق فحمص فطرابلس، وكانت في كل مدينة من هذه المدن تثير ما سكن في نفوس الناس وتشعل ما خمد في وجدانهم فيلتفون حولها ويصغون الى محاضراتها واحاديث اختباراتها العجيبة مجذوبين بعوامل قوية سحرية . غير ان أئمة الدين وشيوخ العلم في كل بلد كانوا يصادرونها ويفندون اقوالها ويعرضون بها الى الحكام . بعد ذلك طلبت نفسها العزلة فجاءت هذا المكان منذ اعوام واستوحدت به زاهدة متعبدة منصرفة عن كل شيء سوى التعمق في الاسرار الربانية . هذا قليل من كثير أعرفه عن حياة

آمنة العلوية . اما ما حباني الله بمعرفته عن ذاتها المعنوية وما يتآلف في نفسها من القوى والمواهب فليس بامكاني الكلام عنه الآن . ومَن من البشر يا ترى يستطيع ان يجمع الاثير المحيط بهذا العالم في كؤوس وأكواب ؟

نجيب – متأثراً : أشكر لك يا سيدي ما تفضلت وحدثتني به عن هذه المرأة العجيبة . لقد ضاعفت شوقي الى الوقوف بحضرتها .

زين العابدين – يتفرس فيه دقيقة : انت مسيحي . أليس كذلك ؟

نجيب : نعم ، ولدت مسيحياً غير انني أعلم اننا اذا جردنا الاديان مما تعلق بها من الزوائد المذهبية والاجتماعية وجدناها ديناً واحداً .

زين العابدين : أصبت ، وليس بين البشر أدرى بالوحدة الدينية المجردة من آمنة العلوية ، فهي في الناس على اختلاف طوائفهم كندى الصباح الذي يهبط من الاعالي وينعقد دراً مشعشعاً بين أوراق الازهار المتباينة لوناً وشكلاً . نعم هي كندى الصباح . . .

(يقف زين العابدين فجأة عن الكلام ويلتفت الى الجهة الشرقية مصغياً ثم ينتصب على قدميه ويومىء الى نجيب ان ينتبه فيفعل هذا ممتثلاً)

زين العابدين – هامساً : هوذا آمنة العلوية .

(يرفع نجيب يده الى جبهته كأنه أحس بحدوث تغيير في دقائق الهواء ثم ينظر فيرى العلوية آتية فتتغير ملامحه ويضطرب في داخله ولكنه يبقى واقفاً في مكانه كالتمثال . . . تدخل آمنة العلوية وتقف امام الرجلين وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها اقرب من معبودات الشعوب الغابرة منها الى امرأة شرقية في الزمن الحاضر . ومن الصعب تحديد

عمرها بمجرد النظر الى ملامحها ، فكأن الشباب في وجهها يستر ألف سنة من المعرفة والاختبار . اما نجيب وزين العابدين فيظلان جامدين خاشعين متهيبين كأنهما بحضرة نبي من أنبياء الله . . . وبعد ان تحدق العلوية الى وجه نجيب كأنها تخترق بنظراتها صدره ، تدنو منه وقد انبسطت ملامحها وابتسمت ، وبصوت عذب تقول . . .)

آمنة العلوية : جئتنا أيها اللبناني متنسماً أخبارنا مستفحصاً حالنا . ولن تجد بنا الا ما بك ، ولن تسمع منا الا ما عرفته ُ في نفسك .

نجيب — مفعولاً : ها قد رأيت وسمعت وصدقت واكتفيت .

العلوية : لا تكن قنوعاً بالقليل ، فمن يرد ينابيع الحياة بجرة فارغة صرف بجرتين طافحتين .

(تمد يدها اليه فيتناولها بكلتا يديه خاشعاً محتشماً ويقبل اطراف اصابعها مدفوعاً بعامل خفي . تلتفت الى زين العابدين وتمد يدها اليه فيفعل هذا فعل نجيب ثم تتراجع قليلاً الى الوراء وتجلس على حجر منحوت أمام بيتها وتشير الى صخر قريب وتقول لنجيب) : هذه مقاعدنا فاجلس .

(يجلس نجيب ويفعل زين العابدين فعله) .

العلوية : اننا نرى بعينيك نوراً من انوار الله ، ومن ينظر الينا ونور الله في عينيه يرى حقيقتنا عارية مجردة . واننا نرى بوجهك ما يرفعه الاخلاص عن حب الاستطلاع الى الرغبة في الحق . فان كان على لسانك كلمة فقلها فنحن اليك مصغون . وان كان في قلبك سؤال فاطرحه فنحن لك مجيبون .



مجنون ليلى

بريشة جبران خليل جبران

نجيب : جئت مستعلماً عن أمر يتحدث الناس به لغرابته ولكني ما وقفت بحضرتك حتى علمت ان الحياة مظاهر الروح الكلية فكان مثلي مثل صياد القى شبكته في البحر ليصطاد سمكاً ولما اجتذبها الى الشاطىء وجد فيها صرة من الحجارة الكريمة .

العلوية : جئت تسألنا عن دخولنا ارم ذات العماد ؟

نجيب : نعم يا سيدتي ، منذ حداثتي وهذه الكلمات الثلاث « ارم ذات العماد » تعانق احلامي وتتمشى مع خيالي بما وراءها من الرموز والمقاصد الخفية .

العلوية – ترفع رأسها وتغمض عينيها وبصوت يخاله نجيب آتياً من قلب الفضاء تقول : اجل قد بلغنا المدينة المحجوبة ودخلناها واقمنا فيها وملأنا روحنا من اريجها وقلبنا من اسرارها وجيوبنا من لؤلؤها وياقوتها ، فمن ينكر علينا ما شاهدناه وعرفناه كان ناكراً لذاته امام الله .

نجيب – متأنياً : ما أنا يا سيدتي سوى طفل يلثغ متلعثماً بما يريد بيانه ، فان سألتك عن أمر فبخشوع اسأل . وان استقصيت أمراً فبامعان واخلاص . فهلا جعلت عطفك علي شفيعاً بي لديك اذا ما اتعبت سرك بسؤالاتي الكثيرة ؟

العلوية : سل ما شئت فقد جعل الله الحقيقة ذات ابواب يفتحها بوجه من يطرقها بيد الايمان .

نجيب : هل دخلت ارم ذات العماد بالجسد أم بالروح وهل هي مدينة مصنوعة من عناصر الأرض المتبلورة وقائمة في بقعة معلومة من الارض

أم هي مدينة روحية ترمز عن حالة روحية يبلغها أنبياء الله وأولياؤه في غيبوبة يلقيها الله نقاباً على نفوسهم ؟

العلوية : ليس ما نراه على الارض وما لا نراه سوى حالات روحية ، وأنا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي . ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين . انما الزهرة وعطرها شيء واحد . فالاعمى الذي ينكر لون الزهرة وصورتها قائلاً : « ليست الزهرة سوى عطر يتموج في الاثير » ليس هو الا كالمزكوم الذي يقول : « ليست الازهار غير صور وألوان . »

نجيب : اذاً فالمدينة المحجوبة التي ندعوها بارم ذات العماد حالة روحية ؟

العلوية : كل مكان وزمان حالة روحية . وكل المرئيات والمعقولات حالات روحية . فان اغمضت عينيك ونظرت في اعماق اعماقك رأيت العالم بكلياته وجزئياته وخبرت ما فيه من النواميس وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمسه من المحجات . اجل انك اذا اغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية الوجود ونهايته، تلك النهاية التي تصير بدورها بداية وتلك البداية التي تتحول الى نهاية .

نجيب : وهل بامكان كل انسان ان يغمض عينيه ويرى جوهر الحياة المجرد ؟

العلوية : يستطيع كل انسان ان يتشوق ثم يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد اذ ذاك ذاته . ومن يرَ

ذاته بل جوهر الحياة المجرد . فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد .

نجيب – يضع يده على صدره : اذاً كل ما في الوجود من محسوس ومعقول كائن هنا هنا في صدري ؟

العلوية : كل ما في الوجود كائن فيك وبك ولك .

نجيب : أبامكاني ان أقول لذاتي ان ارم ذات العماد موجودة في باطني لا في خارجي ؟

العلوية : كل ما في الوجود كائن في باطنك وكل ما في باطنك موجود في الوجود . وليس هناك من حد فاصل بين اقرب الأشياء واقصاها او بين اعلاها واخفضها او بين اصغرها وأعظمها . ففي قطرة الماء الواحدة جميع اسرار البحار ، وفي ذرة واحدة جميع عناصر الأرض ، وفي حركة واحدة من حركات الفكر كل ما في العالم من الحركات والانظمة .

نجيب – تظهر على وجهه علامات الالتباس : قد قيل لي يا سيدتي انك قطعت المسافات الشاسعة حتى بلغت ذلك المكان المعروف بالربع الخالي في قلب الجزيرة . وقيل لي ان روح والدك كانت الموحية اليك والهادية لك والسائرة معك حتى بلغت ارم ذات العماد . افليس على الراغب في الوصول الى تلك المدينة المحجوبة ان يكون في حالة شبيهة بحالتك وان تكون له الوسائل الجسدية والاسباب المعنوية ليحصل على ما حصلت انت عليه ؟

العلوية : اجل قد قطعنا الصحارى وقاسينا الجوع والعطش وخبرنا مخاوف النهار ورمضاءه واهوال الليل وسكينته قبل ان رأينا اسوار

مدينة الله . ولكن قد بلغ مدينة الله قبلنا من لم يسر خطوة ، وعرف جمالها وبهاءها من لم يختبر جوعاً في الجسد او عطشاً في الروح . اي والحق لقد طاف في المدينة المقدسة اخوانٌ لنا واخوات دون ان يخرجوا من المنازل التي ولدوا فيها (تسكت هنيهة ثم تومىء بيدها الى الاشجار والرياحين المحيطة بها) لكل بذرة من البذور التي يلقيها الخريف في أديم التراب أساليب خاصة في فسخ قشرتها عن لبابها وفي تكوين اوراقها فازهارها فاثمارها . ولكن مهما تباينت الاساليب فمحجة جميع البذور تظل واحدة . وتلك المحجة هي الوقوف امام وجه الشمس .

زين العابدين — يتمايل الى الامام والى الوراء متأثراً كأنه انتقل بالروح الى عالم سامٍ ثم يصرخ بصوت رخيم : الله أكبر . لا اله الاّ الله الكريم الوهاب الملقي ظله بين الالسنة والشفاه.

العلوية : اجل . قل الله اكبر . لا اله الاّ الله . وقل لا شيء الاّ الله .

(يتمتم زين العابدين هذه الكلمات في ذاته اما نجيب فيحدق الى العلوية كالمسحور وبصوت يكاد يكون همساً يقول) : لا شيء الا الله .

العلوية : قل لا اله الاّ الله ولا شيء الاّ الله وكن مسيحياً .

نجيب — يحني رأسه محركاً شفتيه مردداً كلماتها ثم يرفع رأسه قائلاً : قد قلتها يا سيدتي وسوف اقولها الى نهاية حياتي .

العلوية : ليس لحياتك نهاية ، فأنت باقٍ ببقاء كل شيء .

نجيب : من انا وما أنا لأبقى خالداً ؟

العلوية : انت انت . وانت كل شيء ، لذلك ستبقى خالداً .



الخنساء

بريشة جبران خليل جبران

نجيب : اني اعلم طبعاً ياسيدتي ان الذرات التي تتألف منها وحدتي الهيولية ستبقى ببقاء الهيولى ، ولكن أباقية" يا ترى هذه الفكرة التي ادعوها أنا ؟ أباقية" هذه اليقظة الضئيلة المنطقة بالهجوع ؟ أباقية هذه الفقاقيع الملتمعة بنور الشمس وامواج البحر التي ولدتها هي هي الامواج التي تمحوها لتولد غيرها ؟ أباقية هذه الاماني والآمال والاوجاع والافراح ؟ أباقية هذه الاوهام المرتعشة في هذا النوم المتقطع في هذا الليل الغريب بعجائبه الهائل باتساعه وعمقه وعلوه ؟

العلوية – ترفع عينيها الى العلاء كأنها تتناول شيئاً من جيوب الفضاء وتقول بلهجة ايجابية ملؤها العزم والمعرفة والخبرة : كل موجود باقٍ . ووجود الموجود دليل على بقائه . أما الفكرة وهي العلم بكليته ، اذ لولاها لما علم العالم موجوداً كان او غير موجود ، فهي كيان أزلي" ابدي خالد لا يتغير الا" ليتجوهر ، ولا يختفي الا" ليظهر بصورة اسنى ، ولا ينام الا" ليحلم بيقظة ابهى . ولقد عجبت لمن يثبت بقاء الذرات في الغلافات الخارجية التي تتصورها حواسنا ولكنه ينكر ما جُعلت الغلافات من اجله . عجبت لمن يقرر خلود العناصر التي تتألف منها العين ولكنه يشك بخلود النظر الذي اتخذ العين آلة له . عجبت لمن يثبت ابدية المسببات ولكنه يحتم باضمحلال الاسباب . عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة عن المكون المظهر . عجبت لمن يقسم الحياة الى شطرين فيؤمن بالشطر المدفوع ويجحد الشطر الدافع . عجبت لمن ينظر الى تلك الجبال والسهول المغمورة بنور الشمس ثم يصغي الى الهواء متكلماً بألسنة الاغصان ثم يتجرع عطر الازهار والرياحين وبعد ذلك يقول

لنفسه : لا ولن يزول ما اراه وأسمعه ، لا ولن يضمحل ما اعرفه وأشعر به ، ولكن هذه الروح العاقلة التي ترى فتتهيب وتتأمل وتسمع فتفرح وتكتئب ، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنبسط وتعلم فتكتئب وتتحقق ، هذه الروح التي تحيط بكل شيء سوف تضمحل اضمحلال الفقاقيع على وجه البحر وتزول زوال الظل امام النور . اي والحق اني اعجب لكائن ينكر كيانه .

نجيب – متهيجاً : قد آمنت بكياني يا سيدتي . ومن يسمعك متكلمة ولا يؤمن كان أشبه بالصخر منه بالانسان .

العلوية : ان الله وضع في كل نفس رسولاً ليسير بنا الى النور ، ولكن في الناس من يبحث عن الحياة في خارجه والحياة في داخله ولكنه لا يعلم .

نجيب : أليس في خارجنا أنوار لا نستطيع بدونها الوصول الى ما في أعماقنا ؟ أليس في محيطنا قوى تستنهض قوانا ومؤثرات تنبه الغافل فينا ؟

يطرق هنيهة متردداً ثم يعود يقول : اولم توحِ اليك روح والدك اموراً لا يعرفها سجين الجسد ورهين الايام والليالي ؟

العلوية : أجل . ولكن عبثاً يطرق الزائر باب البيت اذا لم يكن في داخل البيت من يسمع الطرقات ويقوم ليفتح في وجهه . انما الانسان كائن منتصب بين اللانهاية في باطنه واللانهاية في محيطه . فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان في خارجنا ما في خارجنا . لقد ناجتني روح والدي لان روحي ناجتها وأوحت الى عاقلتي الخارجية ما كانت تعرفه

عاقلتي الباطنية . فلولا جوعي وعطشي لما حصلت على الخبز والماء ، ولولا شوقي وحنيني لما لقيت موضوع شوقي وحنيني .

نجيب : أيستطيع كل منا يا سيدتي أن يغزل سلكاً من شوقه وحنينه ويمده بين روحه والارواح المنعتقة ؟ افليس هناك طائفة من الناس قد اعطيت المقدرة على مخاطبة الارواح واستنزال مشيئتها ومراميها ؟

العلوية : ان بين سكان الاثير وسكان الارض مخاطبات ومسامرات مستتبة باستتباب الايام والليالي . وليس بين الناس من لم يأتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة . فكم من عمل يأتي به الفرد متوهماً انه مخيّر بفعله وهو بالحقيقة مسيّر . وكم من عظيم في الارض كانت عظمته في استسلامه التام الى ارادة روح من الارواح استسلام قيثارة دقيقة الاوتار الى نقرات عازف خبير . أجل ، ان بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلاً نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ثم نعود وفي أكفنا المعنوية بذور نلقيها في تربة حياتنا اليومية فتنبت أعمالاً جليلة أو أقوالاً خالدة ، ولولا تلك السبل المفتوحة بين أرواحنا والارواح الاثيرية لما ظهر في الناس نبي ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عارف . (ترفع صوتها عن ذي قبل) اقول ، ومآتي الادهار تشهد لي ، ان بين الملإ الأعلى والملإ الادنى روابط شبيهة بعلاقة الآمر بالمأمور والمنذِر بالمنذَر ، اقول انّا محاطون بوجدانات تستميل وجداناتنا ، وعاقلات توعز الى عاقلاتنا ، وقوى تستنهض قوانا ، اقول ان شكوكنا لا تنفي امتثالنا الى ما نشك به ، وانصرافنا الى أماني اجسادنا لا يصرفنا عن

مراد الارواح بأرواحنا ، وتعامينا عن حقيقتنا لا يحجب حقيقتنا عن عيون المحجوبين عنا ، فنحن وان وقفنا فسائرون بسيرهم ، وان هدنا فمتحركون بحركاتهم ، وان صمتنا فمتكلمون بأصواتهم ، فلا الهجوع فينا يزيل يقظتهم عنّا ، ولا اليقظة بنا تحول أحلامهم عن مسارح خيالنا ، فنحن وهم في عالمين يضمهما عالم واحد ، وفي حالتين تمنطقهما حالة واحدة ، وفي وجودين يجمعهما ضمير كلي سرمدي أحدٌ ليس له بدء وليس له نهاية وليس له فوق وليس له تحت وليس له حد وليس له جهات .

نجيب : أياتي يوم يا سيدتي نعرف فيه بالاستقراء العلمي والاختبار الحسي ما تعرفه ارواحنا بالخيال وما تختبره قلوبنا بالتشويق ؟ وهل يتقرر لنا بقاء الذات المعنوية بعد الموت مثلما تقرر لدينا بعض الامرار الطبيعية فنلمس بيد المعرفة المجردة ما نتلمسه الآن باصابع الايمان ؟

العلوية : نعم سيأتي ذلك اليوم . ولكن ما أضلَّ الذين يدركون حقيقة مجردة ببعض حواسهم ولكنهم يظلون مرتابين بها حتى تبدو لحواسهم الاخرى . ما اغرب من يسمع الشحرور مغرداً ويشاهده مرفرفاً متنقلاً ولكنه يبقى متشككاً بما سمع وما رأى حتى يقبض بيده على جسم الشحرور . ما أغرب من يحلم بحقيقة جميلة ثم يحاول تجسيدها وحبسها بقوالب الظواهر فلا يفلح فيرتاب بالحلم ويجحد الحقيقة ويشك بالجمال ! ما أجهل من يتخيل أمراً ويتصوره بشكله ومعالمه وعندما يستحيل عليه اثباته بالمقاييس السطحية والبراهين اللفظية يحسب الخيال وهماً والتصور شيئاً فارغاً . ولكن لو تعمق قليلاً وتأمل هنيهة لعلم ان الخيال حقيقة لم تتحجر بعد وان التصور معرفة اسمى من ان تتقيد

بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من ان تسجن باقفاص الالفاظ .

نجيب : أفي كل خيال حقيقة يا سيدتي وهل في كل تصور معرفة ؟

العلوية : اي والحق . ان مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب امامها ، ولو شاءت لما استطاعت . ان البحيرة الهادئة لا تريك في اعماقها خطوط جبال ورسوم أشجار وأشكال غيوم لا وجود لها بالحقيقة ، ولو شاءت البحيرة لما استطاعت . ان خلايا الروح لا ترجع اليك صدى اصوات لم يرتعش بها الأثير حقاً ، ولو شاءت الخلايا لما استطاعت . ان النور لا يلقي على الأرض ظل شيء لا كيان له ، ولو شاء النور لما استطاع . انما الايمان بالشيء المعرفة بالشيء . والمؤمن يرى ببصيرته الروحية ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم ، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون ادراكه بفكرتهم المقتبسة . المؤمن يختبر الحقائق القدسية بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافة فيظنها جداراً محكم البناء فيسير في طريقه قائلاً : ليس لهذه المدينة من ابواب .

(تقف العلوية وتخطو بضع خطوات نحو نجيب ، وبلهجة من أوشك ان يبلغ من الكلام حداً لا يريد الزيادة عليه تقول)

العلوية : ان المؤمن يعيش كل الايام وكل الليالي ، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوانٍ معدودة منها ، فما أضيق عيش من يرفع يده بين وجهه والعالم أجمع فلا يرى غير الخطوط في كفه ، وما اشد شفقتي على من يدير ظهره الى الشمس فلا يرى غير ظل جسده على التراب .

نجيب – ينتصب واقفاً شاعراً بدنو ساعة انصرافه : أأقول

للناس يا سيدتي عندما أعود اليهم ان إرم ذات العماد مدينة أحلام روحية وان آمنة العلوية قد سارت اليها على سبيل الشوق ودخلتها من باب الايمان ؟

العلوية : قل ان إرم ذات العماد مدينة حقيقية كائنة بكيان الجبال والغابات والبحار والصحارى . وقل ان آمنة العلوية قد وصلت اليها بعد ان قطعت البادية الخالية وقاست ألم الجوع وحرقة العطش وكآبة الوحدة وهول الانفراد . وقل ان جبابرة الدهور قد بنوا إرم ذات العماد مما تبلور وتجوهر من عناصر الوجود ، ولم يحجبوها عن الناس ولكن الناس حجبوا نفوسهم عنها ، فمن يضل الوصول اليها فليشك دليله وحاديه بدلاً من مصاعب الطريق وحراجتها . وقل للناس ان من لا يشعل سراجه لا يرى في الظلام سوى الظلام . (ترفع وجهها نحو العلاء وتغمض عينيها ويظهر على ملامحها نقاب من العطف والحلاوة) .

نجيب – يدنو منها منحني الرأس ويظل صامتاً هنيهة ثم يقبل يدها هامساً : ها قد بلغت الشمس الغروب وعليّ ان أعود الى مساكن الناس قبل ان يكتنف الظلام الطريق .

العلوية : سر في النور وسر بامان الله .

نجيب : سأسير في نور المشعل الذي وضعته في يدي يا سيدتي .

العلوية : سر بنور الحق الذي لا تطفئه الاهوية . (تنظر اليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع الامومة ثم تتحول عنه وتمشي بين الاشجار حتى تتحجب عن عينيه) .

زين العابدين – يقترب من نجيب : الى اين انت سائر الآن ؟

نجيب : الى منزل اصحاب لي بقرب منبع العاصي .

زين العابدين : أتسمح لي برافقتك ؟

نجيب : بكل سرور ، ولكنني ظننت أنك باقٍ بجوار آمنة العلوية فطوبتك روحي وتمنيت لو كنت مكانك .

زين العابدين : نحن نحيا بنور الشمس عن بعد ولكن من منا يستطيع الحياة في الشمس (بلهجة ذات معانٍ بعيـدة) أجيء مرة في الاسبوع متبركاً متزوداً ، وعندما يأتي المساء اعود قانعاً مكتفياً .

نجيب : وددت لو جـاء الناس كافـة مرّة في الاسبوع ليتبركوا ويتزودوا ويعودوا قانعين مطمئنين . (يجلُّ نجيب مقود فرسه ويسير به راجلاً بجانب زين العابدين) .

(الستار)

سكوتي انشاد

سكوتيَ انشاد وجوعيَ تخمة		وفي عطشي ماء وفي صحوتي سكر
وفي لوعتي عرس وفي غربتي لقاً		وفي باطني كشف وفي مظهري ستر
وكم اشتكي همّاً وقلبي مفاخر		بهمّي ، وكم أبكي وثغريَ يفتر
وكم أرتجي خلاً وخلي بجانبي		وكم أبتغي أمراً وفي حوزتي الأمر
وقد ينثر الليل البهيم منازعي		على بسط أحلامي فيجمعها الفجر
نظرت الى جسمي بمرآة خاطري		فألفيته روحاً يقلصه الفكر
فبي مَن براني والذي مد فسحتي		وبي الموت والمثوى وبي البعث والنشر
فلو لم اكن حياً لما كنت مائتاً		ولولا مُرام النفسِ ما رامني القبر
ولما سألت النفس ما الدهر فاعل		بحشد أمانينا أجابت انا الدهر



ابو نواس

بريشة جبران خليل جبران

يا من يعادينا

يا من يعادينا وما إن لنا ذنب اليه غير أحلامنا
هذي رحيق ما لها اكؤس فكيف نسقيها للوامنا
وهي بحار مدُّها صمتُنا وجزرُها في حبر اقلامنا

*

جاورتمُ الأمس وملنا الى يومٍ موشى صبحهُ بالخفاء
ورمتمُ الذكرى وأطيافها ونحن نسعى خلف طيف الرجاء
وجبتمُ الأرض وأطرافها ونحن نطوي بالفضاء الفضاء

*

لوموا وسبّوا والعنوا واسخروا وساوروا ايامنا بالخصام
وابغوا وجوروا وارجموا واصلبوا فالروح فينا جوهر لا يضام
فنحن نحن كوكب لا يسير الى الورا في النور أو في الظلام
ان تحسبونا ثلمة في الاثير لن تستطيعوا رتقها بالكلام

يا نفس

يا نفس لولا مطمعي بالخلد ما كنت أعي
لحناً تغنيه الدهور
بل كنت أنهي حاضري قسراً فيغدو ظاهري
سراً تواريه القبور

*

يا نفس لو لم اغتسل بالدمع او لم يكتحل
جفني بأشباح السقام
لعشت اعمى وعلى بصيرتي ظفر ، فلا
أرى سوى وجه الظلام

*

يا نفس ما العيش سوى ليل اذا جنّ انتهى
بالفجر ، والفجر يدوم
وفي ظما قلبي دليل على وجود السلسبيل
في جرة الموت الرحوم

*

يا نفس ان قال الجهول الروح كالجسم تزول
وما يزول لا يعود
قولي له ان الزهور تمضي ولكن البذور
تبقى وذا كنه الخلود

البلاد المحجوبة

هوذا الفجر فقومي ننصرف عن ديار ما لنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف زهره عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنّى يأتلف مع قلوب كل ما فيها عتيق
هوذا الصبح ينادي فاسمعي وهلمي نقتفي خطـواته
قد كفانا من مساء يدّعي ان نور الصبح من آياته

*

قد أقمنا العمر في وادٍ تسير بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسراباً تطير فوق متنيه كعقبـان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير واكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبـاً فالتهب فغـدونا نتردى بالرمـاد
وافترشناه وساداً فانقلب عندما نمنـا هشيماً وقتاد

*

يا بلاداً حُجبت منذ الأزل كيف نرجوكِ ومن اي سبيل؟
اي قفر دونهـا اي جبل سورها العالي ومن منا الدليل؟
اسراب انت ام انت الأمل في نفوس تتمنى المستحيل ؟

أمنام يتهادى في القلوب		فاذا ما استيقظت ولى المنام
ام غيوم طفن في شمس الغروب		قبل ان يغرقن في بحر الظلام؟

*

يا بلاد الفكر يا مهد الأولى		عبدوا الحق وصلّوا للجمال
ما طلبناك بركب او على		متن سفن او بخيل ورحال
لست في الشرق ولا الغرب ولا		في جنوب الارض او نحو الشمال
لست في الجو ولا تحت البحار		لست في السهل ولا الوعر الحرج
انت في الارواح انوار ونار		انت في صدري فؤادي يختلج

*

حرقة الشيوخ

يا زمان الحب ، قد ولّى الشباب وتوارى العمر كالظل الضئيل
وامّحى الماضي ، كسطر من كتاب خطه الوهم على الطرس البليل
وغدت ايامنا قيد العذاب في وجود بالمسرات بخيل
فالذي نعشقه يأساً قضى ، والذي نطلبه ملّ وراح
والذي حزناه بالأمس مضى مثل حلم بين ليل وصباح

*

يا زمان الحب ، هل يغني الأمل بخلود النفس عن ذكر العهود ؟
هل ، ترى ، يمحو الكرى رسم القبل عن شفاه ملّها ورد الخدود ؟
او يدانينا وينسينا الملل سكرة الوصل واشواق الصدود ؟
هل يصمُّ الموت آذاناً وعت أنّة الظلم وأنغام السكون ؟
هل يُغشّي القبر اجفاناً رأت خافيات القبر والسر المصون ؟

*

كم شربنا من كؤوس سطعت في يد الساقي كنور القبسِ !
ورشفنا من شفاهٍ جمعت نغمةَ اللطف بثغر ألعسِ !
وتلونا الشعر حتى سمعت زهرُ الأفلاك صوت الانفُسِ

. . . تلك ايام تولت كالزهور   بهبوط الثلج من صدر الشتاء
فالذي جادت به أيدي الدهور   سلبته خسلة كف الشقاء . . .

*

لو عرفنا ما تركنا ليلة   تنقضي بين نعاس ورقاد
لو عرفنا ما تركنا لحظة   تنثني بين خلوٍّ وسهاد
لو عرفنا ما تركنا برهة   من زمان الحب تمضي بالبعاد
قد عرفنا الآن ، لكن بعدما   هتف الوجدان: «قوموا واذهبوا!»
قد سمعنا وذكرنا عندما   صرخ القبر ونادى : « اقتربوا !»

*

بالله يا قلبي

بالله يا قلبي أكتم هواك
واخفِ الذي تشكوه عمن يراك – تغنم

*

من باح بالأسرار
يشابه الاحمق
فالصمت والكتمان
أحرى بمن يعشق
بالله يا قلبي اذا أتاك
مستعلم يسأل عما دهاك – فاكتم

*

يا قلب ان قالوا :
اين التي تهوى ؟
قل : قد سبت غيري
ثم ادّعِ السلوى
بالله يا قلبي استر جواك
فما الذي يضنيك الا دواك – فاعلم

*

الحب في الارواح
كخمرة في الكاس
ما بان منها ماء
وما خفي أنفـاس

بالله يا قلبي احبس عناك
ان ضجت الابحار اوهدّت الافلاك ـ تسلم

*



ابو العلاء المعري

بريشة جبران خليل جبران

اغنية الليل

سكن الليل ، وفي ثوب السكون	تختبي الاحلام
وسعى البدر ، وللبدر عيون	ترصد الأيام

*

فتعالي ، يا ابنة الحقل ، نزور	كرمة العشاق
علنا نطفي بذياك العصير	حرقة الاشواق

*

اسمعي البلبل ما بين الحقول	يسكب الالحان
في فضاء نفخت فيه التلول	نسمة الريحان

*

لا تخافي ، يا فتاتي ، فالنجوم	تكتم الأخبار
وضباب الليل في تلك الكروم	يحجب الأسرار

*

لا تخافي ، فعروس الجن في	كهفها المسحور
هجعت سكرى وكادت تختفي	عن عيون الحور

*

ومليك الجن ان مر يروح	والهوى يثنيه
فهو مثلي عاشق كيف يبوح	بالذي يضنيه !

البحر

في سكون الليـل لما تنثني يقظة الانسان من خلف الحجاب

يصرخ الغاب : انا العزم الذي انبته الشمس من قلب التراب
غير أن البحر يبقى ساكتاً
قـائلاً في نفسه : ألعزم لي

*

ويقول الصخر : ان الدهر قد شادني رمزاً الى يوم الحساب
غير ان البحر يبقى صامتاً
قائلاً في نفسه : ألرمز لي

*

وتقول الريح : مـا اغربني فاصـلاً بين سديم وسمـا
غير ان البحر يبقى ساكتاً
قائلاً في نفسه : ألريح لي

*

ويقول النهر : ما أعذبني مشرباً يروي من الأرض الظما
غير ان البحر يبقى صامتاً
قائلاً في ذاته : ألنهر لي

*

ويقول الطود : اني قائمٌ ما أقام النجم في صدر الفلك
غير أن البحر يبقى هادئاً
قائلاً في نفسه : ألطود لي

*

ويقول الفكر : اني ملك ليس في العالم غيري من ملك
غير ان البحر يبقى هاجعاً
قائلاً في نومه : ألكلُّ لي

*

الشحرور

ايها الشحرور غرد		فالغنا سر الوجود
ليتني مثلك حر		من سجون وقيود

*

ليتني مثلك روحاً		في فضا الوادي اطير
اشرب النور مداماً		في كؤوس من اثير

*

ليتني مثلك طهراً		واقتناعـاً ورضى
معرضاً عما سيأتي		غافـلاً عما مضى

*

ليتني مثلك ظرفـاً		وجمـالاً وبهـا
تبسط الريح جناحي		كي يوشيه الندى

*

ليتني مثلـك فكراً		سابحـاً فوق الهضاب
اسكب الانغام عفواً		بين غـاب وسحاب

*

ايها الشحرور غنّ		واصرف الاشجان عني
ان في صوتك صوتاً		نافخاً في أذن أذني



المعتمد بن عباد

بريشة جبران خليل جبران

الجبار الرئبال

في ظلام الليل يمشي مبطئاً وهو مثل الليل هولاً قد بدا
وحده يمشي كأنّ الأرض لم تبرِ إلا"ه عظيماً سيّدا

*

ويدوس الترب مرفوعاً كما تلمس الاطلال اطراف السحاب
فكأنّ الجسم في اثوابه من شعاع وسديم وضباب

*

قلت : يا طيفاً يعيق الليل في سيره ، هل انت جنّ ام بشر ؟
قال مغتاظاً وفي الفاظه رنة الهزء : انا ظل القدر

*

قلت : لا يا طيف قد مات القضا يوم ضمتني ذراع القابله
قال محتاراً : انا الحب الذي لا ينال العيش الا نائله

*

قلت : لا فالحب زهر لا يعيش بعد ان تذبل أزهار الربيع
قال غضباناً وفي لهجته ضجة البحر : أنا الموت المريع

*

قلت : لا فالموت صبح ان اتى ايقظ النائم من غفلتهِ
قـال مختالاً : انا المجد فمن لم ينلني مات في علتهِ

*

قلت : لا فالموت ظل ينثني مضمحلاً بين لحـد وكفن
قـال مرتاباً : أنا السر الذي يتهادى بين روح وبدن

*

قلت : لا فالسر ان باحت به يقظة الفكر تولى كالمنام
قال ملتاعاً : كفى تسألني من أنا . قلت : أفي السؤل ملام ؟

*

قـال محجوباً : أنا أنت فـلا تسألنَّ الأرض عني والسما
فـاذا مـا شئت ان تعرفني فارقب المرآة صبحاً ومسا

*

قال هذا واختفى عن ناظري مثلما الدخـان تـذريه الرياح
تاركاً مـا بي من الفكر يهيم بين اشباح الدجى حتى الصباح

*

اذا غزلتم

اذا غزلتم حول يومي الظنون   وان حبكتم حول ليلي الملام
فلن تدكّوا برج صبري الحصين   ولن تزيلوا من كؤوسي المدام
ففي حياتي منزل للسكون   وفي فؤادي معبد للسلام
ومن تغذى من طعام المنون   لا يختشي من أن يذوق المنام

الشهرة

كتبت في الجَزر سطراً   على الرملِ
أودعته كل روحي   مع العقلِ

*

وعدت في المد اقرا   واستجلي
فلم أجد في الشواطي   سوى جهلي

بالامس

كان لي بالأمس قلب فقضى
وأراح الناس منه واستراح

ذاك عهد من حياتي قد مضى
بين تشبيب وشكوى ونواح

انما الحب كنجم في الفضا
نوره يُمحى بأنوار الصباح

وسرور الحب وهمٌ لا يطول
وجمال الحب ظل لا يقيم

وعهود الحب احلام تزول
عندما يستيقظ العقل السليم

*

كم سهرت الليل والشوق معي
ساهر أرقبه كي لا أنام

وخيال الوجد يحمي مضجعي
قائلاً : « لا تدن ! فالنوم حرام »

وسقامي هامس في مسمعي :
« من يريد الوصل لا يشكو السقام »

تلك ايام تقضّت ، فابشري ،
يا عيوني ، بلقا طيف الكرى

واحذري ، يا نفس ، الا تذكري
ذلك العهد وما فيه جرى

*

كنت ان هبّت نسيمات السحر
اتلوّى راقصاً من مرحي

واذا ما سكب الغيم المطر
خلته الراح فأملي قدحي

واذا البدر على الأفق ظهر
وهي قربي صحت : « هلاّ يستحي ! »

كل هذا كان بالأمس ، وما
كان بالأمس تولّى كالضباب

ومحا السلوان ماضيّ كما
تفرط الأنفاسُ عقداً من حباب

*

يا بني امي اذا جاءت سعاد تسأل الفتيان عن صبٍّ كيب
فاخبروها ان ايام البعاد اخمدت من مهجتي ذاك اللهيب
ومكانَ الجمر قد حلَّ الرماد ومحا السلوانُ آثارَ النحيب
فاذا ما غضبت لا تغضبوا واذا ناحت فكونوا مشفقين
واذا ما ضحكت لا تعجبوا ان هذا شأن كل العاشقين

*

ليت شعري ! هل لما مرّ رجوع او معاد لحبيب وأليف ؟
هل لنفسي يقظة بعد الهجوع لتريني وجه ماضيَّ المخيف ؟
هل يعي ايلول انغام الربيع وعلى اذنيه اوراق الخريف
لا ، فلا بعث لقلبي او نشور لا ، ولا يخضرُّ عود المحفلِ
ويد الحصّاد لا تحيي الزهور بعد ان تُبرى بحدّ المنجلِ

*

شاخت الروح بجسمي وغدت لا ترى غير خيالات السنين
فاذا الأميال في صدري فشت فبعكاز اصطباري تستعين
والتوت مني الأماني وانحنت قبل ان ابلغ حد الاربعين
تلك حالي فاذا قالت رحيل : ما عسى حلّ به ؟ قولوا : الجنون
واذا قالت : أيشفى ويزول ما به ؟ قولوا : ستشفيه المنون

*

العواصف

البدائع والطرائف

